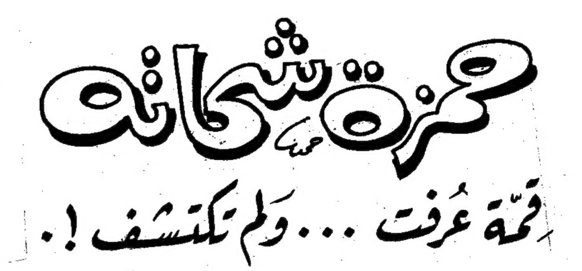
المكتبة الصغيرة

(٢١)



عزيز ضياء

الطبعة الاولى : ربيع الآخر ١٣٩٧ هـ
مـــــارس ١٩٧٧ م

تصميم الغلاف من اعداد شركة (تهامـة) للاعـلان
العناوين للفنان السعودي الاستاذ حمد كليب الحارثي

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

فى أدبنا قمة عرفت ولم تكتشف ..

وليس وجه الغرابة فى انها عرفت ولم تكتشف ، وانما فى انها القمة ، التى لم تخضع لما تخضع له القمم ـ حتى فى التكوين الجيولوجي ـ من عوامل التحات والتعرية ، وما الى ذلك مما نتجنب الخوض فيه بأى تفصيل يختص به العلماء .

والقمة التى أتحدث عنها ، ليست قمة من قمم جبالنا ، وانما هى قمة أدبية ، وهذا ايضاح لابد منه لمن يتوهم ، أن قاعدة الاخذ من كل شىء بطرف بالنسبة للكاتب أو الاديب ، لا تمنع أن أخوض فى بحث جغرافى أو جيولوجى ... ثم لابد منه أيضا لأؤكد ان هذه القاعدة ، قد أصبحت خرافة نصيبها من السخرية هو النصيب المقدور ، لكل من يطيب له أن يتوسع فى الادعاء .

والقمة الادبية التى أتحدث عنها ، لم تخضع لما تخضع له القمم من مثيلاتها، ،على امتداد وتلاحق السلسلة الطويلة من أولئك العباقرة الذين عرفهم تاريخ الادب العربى ، أو تاريخ أى أدب من آداب الامم فى هذا العالم الكبير .

انها القمة التى أخذت العيون بشموخها ، وكانها ولدت قمة منذ درجت على تراب هذه الارض ... أو منذ تفتحت هذه العيون على الادب ، ومنذ تعلقت قلوب الذين عرفوها ، سحر

الاشعاع في الحرف ، وتعشقت حنان موسيقاه ، وسرحت مع أطيافه ورؤاه وانساحت في ألوانه وظلاله .

ورصفائي من الشيوخ ، هم أصحاب تلك العيون التى أخذتها القمة بشموخها .. وهؤلاء الرصفاء رغم ما طال من الزمن معاشرة لها ، وتفاعلا مع ما يشبه تفجر الينبوع الثر من عطائها ، ليس فى الشعر فنا آسرا أخاذا ، وليس فى النثر درا ولآلىء فحسب ، وانما فى الفكر غواصا فى الاعماق ومحلقا فى أبعد الآفاق ، ومتمردا على المألوف ، والتقليدي والمتبع ، الى حد كثيرا ما وصفه محبوه قبل شانئيه بأنه (لا يطاق) !

رصفائي هؤلاء ... رغم طول العشرة ، ورغم وثاقة تركيب اطار الزمالة ، الذى جمعهم بها ، بل ورغم وشائج الود والصداقة التى توطدت بينهم وبينها ، يمكن أن أقول انهم عرفوا هذه القمة شاهدوها ... ولعل بعضهم ، لم يعدم القدرة على دقة تقدير شموخها ، وقد يبلغ بآخرين منهم ، حد توهم أنهملا يجهلون عنها شيئا ذا بال ، ما داموا قد رأوها ، وطافت أبصارهم بهذا الجانب أو ذاك من جوانبها،ولكن أرجو أن لا ادهشهم ، أو أثير استنكارهم اذا قلت : ان طبيعة كل قمة أن ترى .. وأن تملأ العيون ، وأن يتلامح هذا الجانب منها أو ذاك ، مما يبدو وكانه يغني عن اكتشاف الذروة فيها ، والبحث فيما وراء الظاهر من قوامها ... ولكن .. كل هذا .. لا يعنى اكتشافها ..

ان نسمع بقمة من قمم الهيمالايا ، أو ان نقترب من سفوحها وان نرفع أبصارنا الى ذراها الضاربة فى أحضان السماء ، وأن ياخذنا العجب ، بما يتلاحق فوق سطحها من المرائي والصور ، يتفرق عنها الضباب فتشرق وتسطع لها الالوان والظلال ثم يتجمع ويتماسك ، فيلفها ، وتتلامح فيشتد الشغف بتامل الدقائق

واستشفاف التفاصيل الغائبة وراء هذا الضباب ٠٠٠ كل هذا لا يعني سوى اننا رأيناها ٠٠ ولكن الاكتشاف شيء آخر ٠٠٠٠ وليس بيننا من لم يسمع عن البعثات التي تغامر بمحاولة اكتشاف هذه القمم ، وما يتعرض له أعضاؤها من الرجال ، من أخطار بل ما يفاجأون به من أسباب الفناء والدمار ٠

وهذا ٠٠٠ وأعني اكتشاف القمة الادبية التي أتحدث عنها ، لم يحدث حتى هذه اللحظة ٠٠

ولقد كنت واحدا من هؤلاء الذين رأوها ٠٠٠ بل كنت واحدا ممن جمعهم بها اطار الزمالة ـ ولا أقول الندادة ـ وممن توثقت بينهم وبينها وشائج الود والصداقة والالفة ، والتصادم الفكري ، ولكني كنت أيضا واحدا ممن لم يزد حظهم من اكتشافها عن حظ الآخرين ٠٠ واعني انني عرفتها وشهدتها شامخة ، تعيش الحياة ، وأعيشها معها عرضا أغنى عن الطول ، وفترة من أيام بل سنوات صرم حبل امتدادها نزوح هذه القمة الى مصر ، وتعسر كل محاولة بذلتها للعودة الى وطنها ٠٠٠ الى هذه الارض والى جدة بالذات ، الا بعد ان اجتازت هذا الممر المحتوم ، من الحياة الفانية الى الدار التي ينكشف عنا ـ في انتقالنا اليها ـ الغطاء فبصرنا يومذاك حديد ٠٠٠ ولكنها أيام وسنوات كانت على قصرها ازمانا طويلة وعريضة وعميقة ، ترافق فكر ، وتموج شعر ، وتزخارا بما يشبه الكنوز الدفينةثراء ذكريات ، وتجنح أحلام وآمال ٠

وبعد ٠٠٠ ان هذه القمة في أدبنا ، هي الصديق ، والاخ الحبيب ، والزميل الكبير المرحوم الاستاذ (حمزة شحاتة) ٠

وما كاد ينشر خبر وفاته في الثاني عشر من شهر ذي الحجة عام ألف وثلاثمئة واثنين وتسعين ، حتى ازدحمت جميع صحف

المملكة ومجلاتها ، بما جاشت به نفوس وعواطف الادباء والشعراء من مشاعر الفجيعة فيه ، والتقدير لمكانته ، والحسـرة والاسى لفقده ..

وكانت هذه الهزة التي سرت في نفوس الكتـاب والادباء ، وأخص منهم الشداة والناشئين ظاهرة ، قل ان التفت الى عنصر الغرابة فيها أحد ، ممن ظلـوا يوالون الكتابة عنه راثين ، وفي رثائهم دفقات فوارة من الاعجاب بأدبه . وزخات محتدمة مـن الاشادة بعبقريته .

وعنصر الغرابة في هذه الهـزة ، وفي هـذه الدفقات من الاعجاب والزخات من الاشادة ، هو أن حمـزة يرحمه الله ، ظل ـ طيلة حياته ـ أحرص أقرانه ورصفائه على الزهد في نشـر روائعه في الشعر وأسماط لآلئه في النثر ، وشوارده من الحكم ، التي تدخل ساحة ما يسمى (آفوريزم) أو (الاقوال المأثورة) من أوسع الابواب ، ليس في الادب العربي الحديث فحسب ، وانمـا ـ ودون مبالغة أو انجراف عاطفي ـ في الادب العالمي على أوسع نطاق !

فكيف يتفق ان تتقرر لهذه الشخصية هذه الشهرة الساطعة ، والصيت البعيد ، وان تتبارى أقلام الشداة والناشئين في التحدث عن عبقريته وفنه ، طيلة أسابيع ، وربما حتى اليوم ،دون أن تتاح لهم أو يتيح لهم الشاعر أن يقـرأوا الا أقل القليل مـن أعماله ؟!

لا وجه للدهشة أو الاستغراب ، حين نقرأ للاستاذ (أحمـد قنـديل) أروع ما توهجت به مشاعره أو مشـاعر الراثين من الشعراء في القصيدة التي رثى بها (حمزة) ... وليس ممـا

يؤخذ ماخذ الانسياق والاتباع حين نقرأ ما كتبه الشاعر الاستاذ السيد (محمد حسن فقي) ، ولا نتردد في التقدير والاعجاب بما كتبه الاستاذ (محمد عمر توفيق) أو الاستاذ (حسين بن سرحان) ، أو الاستاذ (ضياء الدين رجب) ٠٠٠ لا وجه للدهشة والاستغراب لان هؤلاء مع غيرهم من زملائه ، هم الذين عايشوا الشاعر الفقيد ، وعاشوا تفتح عبقريته وازدهار عطائه وامتلأت نفوسهم انفعالا وتأثرا باشعاع تلك العبقرية ، ونفحات ذلك العطاء ٠٠٠ بل هم الذين عايشوا مرحه وروحه الآسر ، وصراعه الفكري ، وغوصه على الحقائق ، أو ما يريد هو أن يجعله حقائق ، بمنطقه القوي المكتسح ٠

وانما الدهشة والعجب ، من هذا الفيض الذى ظل يتدفق من أقلام الشداة والشبان ، الذين لا أشك في أن بينهم من لم يـر الشاعر الا في الصور التى نشرت له ، ولم يقرأ له الا ما نشر في : (الشعراء الثلاثة) وفي : (شعراء الحجاز في العصر الحديث) وهما المؤلفان المعروفان للاستاذ (عبد السلام الساسي) وقد لا أكون مبالغا ومسرفا في الشك ، اذا ذهبت الى أن بعض من كتبوا عنه ـ وبحرارة ـ لم يطلع حتى على ما نشر له في هذين الكتابين ٠

واذا كان لا بد من تفسير لهذه الظاهرة ، ولا بد أن نسميها (ظاهرة) ، فهو أن أقل القليل من هذا الذى نشر له وعنه ، كان له من الاثر في النفوس ، والايغال في المشاعر ، والرسوخ في الاذهان ما لم ، ولا يتوفر لغير حمزة شحاتة ، الا بالكثير المتوالى من عطاء منشور ، وعلاقة موصولة ٠

وهذا يؤكد ـ مرة أخرى ـ أن حمزة شحاتة في حياتنا الادبية كان وما يزال القمة التى عرفت ، ولكنها لم تكتشف ٠٠٠ فهؤلاء

الشداة والناشئون الذين صالوا وجالـوا باقلامهم على اختلافهـا قوة وضعفا وسطحية وعمقا ، لا يختلفون عن اولئك الذين يشهدون احدى قمم الهيمالايا ، ويؤخذون بشموخها ، ولكنهم يلتزمون الصمت اذا ما سئلوا عن هذه القمة تكوينا يتعقد ، ومسالك تتوعر أوَ تسهل ، ومداخل تتجهم او تهش ، وانواعا من المعادن النادرة ، والاحجار الثمينة ، تظهر على السطح فتنالها الايدى ، أو تتستر وتتوارى فى الاعماق ، فلا يصل اليهـا الا المختصون في التنقيب عن المعادن ، الى جانب أنواع من اللوح وصنوف من الحشائش والاعشاب ، لها من الوان الزهر ، وغرائب الشكول ، ما لا يعرف خصائصه ، وفصائل انتمائه ، الا كبار الاخصائيين فى النبات من علم الاحياء ٠

ولا أحب أن أتورط فازعم ، اني استعطت اكتشاف هذه القمة ، وان هذا الحديث يكشف ، أو يعرض الكثير من المجهول عنها ٠٠٠ وأرجح الظن أن رصفاءنا من الشيوخ ، لا يرضيهم بل لا يرضيني انا معهم ، ان تقال الكلمة الاخيرة أو الوافية المنصفة ، التي تعطى (حمزة شحاتة) حقه ، وحق أدبه وعبقريته من البحث والتحليل والتقدير ، فى مثل هذا الحديث ، الذى يمكن أن أسميه مقـدمة ٠

فاذا لم يقدر لى هذا ـ وظاهر الحال يؤكد انه بعيد المنال ـ فان فى شبابنا الجامعي المؤهل وهو يتفرغ لتحضير رسالة في مستوى الماجستير ، أو مستوى الدكتوراة ، من ارجو ان تحفزه هذه المقدمة أو هذا الحديث كما أحب أن يسمى ، الى ان يجعل احدى هاتين الرسالتين عن حمزة شحاتة شاعرا واديبا وفيلسوفا ٠٠ أو فلنقل رائدا من رواد الفكر فى هذا البلد الذى يكفيه حين تقفر حياته الفكرية طيلة ما يقرب من نصف قرن ، ممن يمكن أن يعتبروا روادا ، أن يكون فيه ومن أبنائه البررة حمزة شحاتة رحمه الله ٠

عزيز ضياء

كيف عرفته ؟

عرفت حمزة شحاتة ذات مساء ، بعد اطلاق سراحه من معتقله في الرياض ، مع عدد من شبّان تلك الايام على اثر الفتنة التى شغب بها (حامد ابن سالم بن رفادة) وانتهت بمقتله وابنيه على مقربة من « ضبا » في الشمال من ساحل البحر الاحمر ، في عام ألف وثلاثمائة وواحد وخمسين ٠ وكان من هؤلاء الشبان أستاذنا الشيخ «عبدالوهاب آشى » ، أول رئيس تحرير لجريدة صوت الحجاز التى كان العدد الاول منها قد ظهر في يوم الاثنين السابع والعشرين من شهر ذى القعدة عام ألف وثلاثمائة وخمسين ٠٠٠ كما كان منهم الاستاذ « محمد حسن عواد » الذى كان بدوره مديرا لتحرير هذه الجريدة ٠٠٠ واذ كانت جريدة صوت الحجاز

تصدر فى مكة المكرمة وكنت من سكانها فقد كانت معرفتي بالاستاذ (عبدالوهاب آشي) ، وبالاستاذ (محمد حسن عواد) أسبق من معرفتي بحمزة •

كنت أمشى خارجا من مظلّة المسعى ، الى ساحة الصفا ، برفقة صديق أرجو ألا تخذلنى الذاكرة اذا قلت انه الشيخ الاستاذ «صالح باخطمة» ، ، وقد كان ، وأرجح انه ما يزال رغم صمته ، من رجال القلم والفكر ، مع الزهد فى النشر ، وان كنت لا أنسى له جولات فى صوت الحجاز ينشرها بتوقيـــع (المقنع) •

كنا على موعد لزيارة الشيخ (عبدالوهاب آشي) لتهنئته بسلامة العودة وبالبراءة مما نسب اليه مع اخوانه ••• وسمعت الشـــيخ « صالح باخطمة » يهمس : (أنظـر ••• هـــذا الشاب ••• أبو نضّارة) ! ، وأشار بأصبعه ، فرأيت شابا ، فارع القامة وثيق البنيان ، عالي الجبهة ، أسمر اللون

وعلى رأسه تلك الكوفيّة التى كان شباب جدة يتأنّقون ، ليس فقط فى طريقة وضعها مائلة أو مستقيمة ومنحدرة الى الوراء ، أو متوثبة الى الامام ، وانما فى معالجتها بالنشا والكي والتكوين الخاص ··· وعلى العنق ، قطعة من القماش مازلت أسميها (شالا) ولعل لها عند اخواننا فى جدة اسما آخر ·· وقد تختلف هذه القطعة أو هذا الشال مادة ونسيجا كما تختلف ألوانا وأثمانا ، ترتفع فتبلغ عددا من الجنيهات الذهبية ، وتنخفض ، فلا تزيد عن عدد من الريالات الفضية ··· ولكنها ـ وأعنى هذه القطعة من القماش ـ دائما حول العنق ، يتدلى طرفاها على الصدر ، يحيط به المعطف ـ وكانوا يسمونه « كوتا » ـ الذى يغلب أن يكون من لون الثوب ، وهذا الثوب لابد أن يكون ناصع البياض ، كما هو الحال الآن ـ ولكن لا بد بالنسبة للمتأنقين المترفين من شباب جدة ، أن يكون أقصر ، أو قصيرا ، يسمح بظهور السروال ، (الذى لا يختلف عن البنطلون فى شيء)

وقد سمعت أن النساء كن يبذلن الطائل من الجهد لكيّه ، وابراز استقامة خط الثَّنْية فيه ·

وأضاف الشيخ صالح باخطمة : (هذا أبو عرب ··· حمزة شحاتة) وكان يعرفه فاستوقفه مرحبا أو استوقفناه معا ، أمام بيت باناجة الذى كان يحتلّ الصدر من ساحة الصّفا للقادم من أجياد أو سوق الصغير ، ويفصل بين المسعَى والقشاشية ·

وكان حمزة ذاهبا ، هو أيضا الى منزل الشيخ عبدالوهاب آشي فى القشاشية ، فترافقنا ومازلت أذكر تصعيدنا فى سلالم منزل الشيخ عبدالوهاب طابقا بعد طابق ، الى أن وصلنا الى السطح ، أو « الخارجة » ، كما كانت تسمّى تلك الساحة ويسهر فيها الاصدقاء المقربون ، فى البيوت التى تتعدّد فيها الخوارج ، هربا من الحر وطلبا لنسمة الهواء

ولابد أن أذكر فى هذه اللحظات اعجابى البالغ ، بالمثال الذى بدا لى رائعا للاناقة فى هندام حمزة وملابسه ··· كان له ذلك المظهر السَّرِي الذى

يذكّرك باحساسه المرهف ببواعث الشباب ونوازعه وما يستتبعانه من تعلّق بالترف ، وحرص على التأنق ، فى اطار من صرامة الرجولة ، ودفقة عنفوانها واعتزاز بالشخصية واحساس بالوزن الفكري تحلّق به مشاعر النبل ، وليس التنبّل ، والرفعة ، وليس الترفّع وصدق العاطفة فيما يفضى به عن ذات نفسه ، وخلوصها ، وليس افتعالهما أو التظاهر بهما .

ويطول الحديث عن مراحل العلاقة بين حمزة ، وبين أصدقائه فى مكة حين يسكنها وبين هؤلاء وأصدقائه فى جدة حين يعود اليها كلما استقال كعادته من الوظائف التى يتقلدها ... بل قد لا ينتهى هذا الحديث اذا ماذهبنا الى استعادة ذكريات ليال ، لم تكن تخلو من المرح والعبث ، ولكنها تزخر وتزدحم أشد الازدحام أيضا بالحوار والنقاش ، حول ما لا يحصى من شئون الفكر والادب والفلسفة والفن والسياسة والاخلاق .

ومازلت أذكر ، ولا ينسى رصفائى من الشيوخ، كيف كانت تنقضى الليلة من الغسق حتى الفجر فى حوار حول آراء افلاطون فى جمهـــوريته ، التى اشتريت أول نسخة منهـا بجنيه ذهبي ممــــن آن الاوان لذكر فضله على ناشئة تلك الايام ، باستيراد هذه الكتب أو اصطحابها معه فى عودته من مصر وهو الشـــيخ «أحمد حلوانى» فى مكتبته ، أمام دائرة البريد فى القشاشية ، وكانت أول ترجمــة للجمهورية ظهرت فى اللغة العــربية بقلم (حنا خباز) ••• ثم حول الفارابي ومدينته الفاضلة ، بل حول داروين ونظريتــه فى أصل الانواع ، وقد ترجم كتابه الاستاذ « اسماعيل مظهر » ، بل لست أنسى كيف كنا نتناوب على النســـخة الوحيدة من كتاب أو كتب الدكتور « شبلي شميل » ، رغم ما كان معروفا عنه من تطرّف فى الدعوة الى التحرر من الآراء والعادات القديمة ومن تسليمــه بمذهب داروين تسليما مطلقا انتهى به وبأمثاله فى تلك الفترة الى الزندقة والالحاد •• وهذا الى جانب

تهافتنا على جريدة (السياسة الاسبوعية) التى كان يصدرها ويرأس تحريرها الدكتور « محمد حسين هيكل » ومن محرريها المرحوم الاستاذ « ابراهيم عبدالقادر المازني » والدكتور « طه حسين » ، و « عبد العزيز البشري » و « عباس حافظ » ، ومنهم ، من لابد أن يعتبر طليعة شعراء التجديد، المرحوم الشاعر (علي محمود طه المهندس) الذى نشر فيها قصيدة (البحيرة) لالفونس دى لامارتين ، وقد نقلها الى العربية شعرا منظوما ومطلعها :

ليت شعرى أهكذا نحن نمضِى
في عباب الى شواطىء غمض

ومازلت أذكر أول عهدى بكتاب « الاغانى لابى الفرج الاصفهانى » ولم تكن دار الكتب المصرية قد أصدرت من اجزائه سوى الاجزاء من الاول الى الخامس ، وما كدت أراه مجلدا تجليدا أنيقا ، فى مكتبة الشيخ « أحمد حلوانى » حتى أخذت أوفر قيمة هذه الاجزاء من الراتب الذى لم يكن يزيد عن

ستة جنيهات ذهبية ، تدفع (بقيمة اعتبارية قدرها عشرة ريالات) بينما قيمة الجنيه الذهبي في السوق ، لا تقل عن عشرين أو ثلاثين ريالا ٠

ويصدر في هذه الفترة ، (كتاب في الشعر الجاهلي) للدكتور طه حسين ، ونقرأ في الصحف المصرية ، تلك الضجة التي أثيرت ٠٠ فقرأناه وظللنا ندير الحوار حول آراء الدكتور طه وآراء من ثاروا عليه ، ونعود الى ما بين أيدينا من الشعر الجاهلي ، وعلى الاخص منه المعلقات بشرح الزوزني فنجد بيننا من يسفّه آراء الدكتور ، ومن يعتدل فيتروّى ويطيل التأمل فيما قاله ويقوله خصومه والثائرون عليه ٠

واذ كنا قد التفتنا الى الدكتور « طه حسين » بكتابه هذا وبالثورة التي أطاحت بوزارة الحزب الذي نسيته الآن ، ولعله حزب الاحرار الدستوريين فلم يكن لنا مناص من التهافت على ما يكتب في الصحف وما ينشره من كتب أو مقالات وعلى الاخص

في جريدة الجهاد ٠٠ وكأنَّ الشيخ «أحمد حلواني» كان يتحسس اتجاهاتنا ، ويفهم مسار تطلّعنا دون أن يشعرنا بشيء ، وهو ما يمتاز به عن المرحوم الشيخ (عبد الله فدا) وكان كتبيًّا عريقا ، ومعدودا في الادباء والخطباء ، فاذا بالشيخ أحمد يستورد أو يعرض في مكتبته ، كتاب (حديث الاربعاء) ثم كتاب (الايام) للدكتور طه حسين أيضا ٠٠ فنشتريهما ، ونعكف على قراءتهما حينا وننصرف الى سماع أغاني عبدالوهاب من فيلم الوردة البيضاء من جراموفون ، نحكم سدّ بوقه أو سماعته بالقطن حينا أو المنشفة المبللة بالماء حينا آخر ٠٠

ثم فاجأنا الشيخ أحمد حلواني أيضا بكتاب لم يكن مما ينبغي أن نهتمّ به أو نُعنى بقراءته ، اذ لم يكن أدبا ولا فلسفة ، ولكنه يحمل عنوانا مغريا ، كان عنوان الكتاب : (فقه السياسة لمؤلفه أحمد وفيق) ٠٠٠ وكان في مجلدين ضخمين ٠٠ لا تقلّ

صفحات كل منهما عن خمسمائة صفحة • فاشتريته بكل ما بقى من الراتب الضئيل •• وجاء (حمزة) من جدة ، فى احدى جيئاته ، ورأى الكتاب ، فنظمنا ما يشبه برنامجا للقراءة وسماع أغانى محمد عبدالوهاب بطريقة سد البوق ، فى البيت الذى كنت أسكنه من أملاك (ملائكة) فى ربع مغازل ••• ولا أذكر انى فهمت شيئا ذا بال من هذا الكتاب ، ولكن لم يكن بد من قراءته من الجلدة الى الجلدة ، ومن الحوار حوله ، والمؤلف ، يرجعنا الى مصادر بحثه التى لم يسبق أن سمعنا بها قط

وفى هذه الفترة أيضا ، صدرت طبعة منقحة ومصححة ومحققة من كتاب (العمدة) لابن رشيق ••• ثم طبعة لكتاب (فقه اللغة) للثعالبي ، ولم يمض وقت طويل حتى صدرت طبعة جيدة لكتاب (يتيمة الدهر) للثعالبي أيضا ••

★ ★ ★

معركته مع العواد !

ولست أذكر كيف وقعت الواقعة بين (حمزة) رحمه الله ، وبين الاستاذ (محمد حسن عواد) ... وأهم ما يعنينا الآن ، تلك المعركة حامية الوطيس التى نشبت بين الشاعرين ... معركة هجاء مرير، قد لا نتقبّله خُلُقيا ، وقد نضيق به أشد الضيق تجريحا ، ومساسا بما للشاعرين الكبيرين من كرامة ووزن وسمعة نقيّة وخُلُق كريم ، ولكنّا لم نكن نملك الا الاعجاب بأصالة الشعر ، وبالابتكار فى تناول المهجوّ ، تناولا يُغرِق فى التعريض بقيمة كل منهما ، وبالاسلوب الرفيع ، فى اداء المعانى ، وفى التصرّف المذهل ، فى وصف المختلق من الاحداث ..

وبعض هذا الهجوم قد نشر فى جريدة « صوت الحجاز » ، وهذا أغرب ما يمكن أن يكتشفه اليوم

من لم يعاصروا تلك الفترة من مسيرة الادب في بلادنا ٠ ٠ولكن ما كان ينشره الاستاذ (عبدالسلام الساسي) ، ويحفظه عن ظهر قلب لكل من الشاعرين ظلّ وما يزال هو الذى يعطينا نموذجا من الفحولة التي لا تقل بحال عن نقائض واهاجي الاخطل والفرزدق وجرير ، في العصر الاموي ، وعن ابن الرومي وبشار بن برد في العصر العباسي ٠٠

ومازلت أذكر ، والاستاذ (عبدالسلام الساسي) لن ينسى أبدا ، مركازنا في « الاولمب » وهو تلك الهضبة التي تشرف على مزارع المسفلة وبركة ماجن ٠٠ كيف كان يقف ، ويلقي علينا قصيدة (العواد)، في هجو (حمزة) ثم قصيدة (حمزة) في (العواد) ٠٠٠ ولم يكن يقرأها في ورقة مكتوبة ، وانما من حافظته الغريبة حقا وان كان لابد من أن نعترف بمشاعرنا نحو البطلين في هذه المعركة ــ وقد شارك فيها الاستاذ (أحمد قنديل) نصيرا لحمزة والاستاذ (محمود عارف) نصيرا للعواد ، فلا أخفي انى كنت أشدّ اعجابا بقصائد حمزة في هجو

العواد ‥ ومازلت أذكر ، انى كنت فى القاهرة ، ولى فيها صديق أزهري ، يحفظ المئات أو الالوف من قصائد ومقطوعات الشعر القديم ، جمعنى به لقاء ، دار الحديث فيه عن الشعر والشعراء فذكر على جارى العادة فيما يذكر عن الشعر فى الحجاز قديما … عمر بن أبى ربيعة ، وغزله ، وأخـذ يترنم :

أمن آل نعـــم انت غاد فمبكــر
غداة غـــد أم رائــح فمهجّـــر

ثم انتقل الى العصر الاموي ، والنقــائض ، واهاجى جرير والفرزدق والاخطل ‥ ولست أدرى كيف ذكرت أبياتا من هجاء حمزة فىالعواد رويتها له ويتعذّر أن أروّيها الآن وقد التزم حمزة فى قافية القصيدة ، التاء المكسورة والهاء الساكنة ‥ مثل : آهاته ‥ وفلتاته ‥

فما كاد صاحبنا الازهري يسمعها ، حتى وقف مهتاجا صائحا : (يا سلام ‥ يا سلام ‥ مستحيل

آن يكون فى الحجاز شعر بهـذه القوة فى هـذه الايام) ٠

ولا بأس ، ونحن فى مجال هذه الذكرياتالبعيدة أن نقول : ان اخانا الاستاذ (عبدالسلام الساسي) قد نشر فى كتابه الشعراء الثلاثة قصيدة بعنوان (ملحمة) لحمزة رحمه الله وكانت واحدة مما نشر فى صوت الحجاز ٠ ولكننا لا نجد حرجا ، فى أن نرى ختام هذه الملحمة التى يقول فيها حمزة :

حدث الليل ٠٠ قال : وانفرد
البحر يواسيه شاطىء مهجـور
ادبرتْ عنهما الحيـاة واهلوها
فذا ضـاحل وذا منـذور
قنعاً صاغرين بالواقع البخس
ويرضى بعيشـه المـكثور
ومضى الدهر ، لا يثقّل رجـلا
تسـتوى عنـده صَبا ودبور
هازئا بالغـرور والضـعف
والباطل والدهر بالحياة بصير

ذلك استطراد استلزمه مالايزال يذكره الشيوخ ، من زملاء الفقيد ، وما لن تتم الصورة عن حمزة رحمه الله الا باللجوء اليه ، وما أظـــن ، أن مما يتّسق مع الرغبة فى تكامل اللمحة عن الشاعر ، أن نتخطىَّ مالا ينبغى أن يُعدَّ فى المباذل ، ما دام القصد هو محاولة اكتشاف هذه القمة الشامخة ٠

★ ★ ★

مسيرته الثقافية ..

ونعود الى الخلفيات الثقافية فى حياة الشاعر ، وفى حياة رصفائه فى تلك الايام ·· ولا أجد بُدّاً من وقفة قصيرة عند لطفى السيد باشا ، فقد كنا نتسامع بعبقريته وعلمه وفضله على العلم والعلماء والادب والادباء ، والفكر والمفكرين ·· كما كنا نتسامع عن ترجمته لكتاب (السياسة) لاريسطو طاليس ··· عن الترجمة الفرنسية لبارتى سانتيهيلير ··· فنتمنّى أن نرى هذه الترجمة مطبوعة ·· ولم تطبع الا فى عام ١٩٤٧ وأذكر انى كنت فى القاهرة وكان حمزة رحمه الله قد استقر فيها ، فما أسرع ما أخذنا نتدارسه معا ·· فينقضى الليل ، وينام من فى البيت من الاهل والاطفال ··· ويستيقظون فى الصباح ليجدونا

ما نزال كما تركونا في الساعات الاولى من الليل .. وأطباق الرماد طافحة بأعقاب السجاير ، وأكواب الشاي تتثاءب فراغا وحلق كل منا يتقصّف جفافا ، فلا نكاد نلمح من أستيقظ ، حتى نستنجده بطلب شاي جديد ، لنبدأ أو لنواصل الحديث عن أريسطو ، وعن ذلك الغرض البعيد ، الذى استهدفه (لطفى السيد) من ترجمة هذا الكتاب بالذات ومقدمة سانتيهيلير فيه على الاخص ... بل ذهبنا الى أن لطفى السيد لم ينقل الكتاب الى العربية ، الا لينقل اليها هذه المقدمة ..

وأدَعُ جانبا تلك الدفقة الكبيرة من القصص التى نشط لنقلها الى اللغة العربية أساطين فن الترجمة فى مصر ، من أمثال المرحوم الاستاذ (ابراهيم عبدالقادر المازني) فى قصة (ابن الطبيعة) للكاتب الروسي المغمور (هاتز بياتشيف)، وقد نقلها المازني عن الانجليزية ، ولهذه القصة فى حياتنا ، تلك الايام أثر لا ينسى ، فقد كان يطيب لحمزة رحمه الله ، أن يسمّيَ كلا منا بأسماء

أبطال القصة ، ويختار لنفسه بطلها الاول أو الاظهر الذى تدور حول حياته القصة كلها ، وهو « سانين» ، واختار لى اسم (يورى) ولست أذكر بماذا سمّى بقية المجموعة من الاصدقاء • وقد نشر المازني ، بعد أكثر من عشر سنوات قصة بعنوان ابراهيم الكاتب اتهمه بعض النقاد بأنه قد سرقها من (ابن الطبيعة) ، وقد قرأنا القصة ، واستسْخفتُ أنا رأى هؤلاء النقاد اذ لم يكن فى وسع المازني أن يستغنيّ أو أن يتخلّى عن اسلوبه فيما يكتب ، من أدبه أو من الآداب التى ينقلها الى العربية ، وكانت وجوه الشبه بين القصتين ، تنحصر فى هذا الاسلوب الرفيع الذى عُرف به المازني رحمه الله •

ومن القصص التى لا بد أن تذكر ، وتعتبر من الاسس فى خلفياتها الثقافية ، قصة (تاييس) و (الزنبقة الحمراء) لاناتول فرانس، وكان مما دار بينى وبين (حمزة) عن اناتول فرانس فى هاتين القصتين ، أن انسانية فرانس ، ومعالجته لموضوع

العهـــر والطهر ، بالنســـبة لتاييس ، والراهب بافنوس ، قد انطـوت والتفتّ أو هي اندثرت فى الجـو الخاص الذى تدور فيه أحـــداث الزنبقة الحمراء ، وأن حريته المطلقة التى مارســـها فى تصوير (تاييس) الغانية ، ثم (تاييس) القديسة قد جمدت جمود الكريستال على المـوائد المترفة ، وجمود الماس واللؤلؤ على صدور النساء فى حفلات العشاء التى يدور حـــولها الابطال فى (الزنبقة الحمـــراء) ومـــع ذلك ، فلم نكن نملك اعجابنا باسلوب فرانس وتصويره الرائع للصراع الرهيب الذى ظل يعانيه الراهب (بافنـــوس) مع افاعي الجنس التى تنهش صدره ، والذئاب الجائعة فى أعماق نفسه المحرومة من مطلبها الغريزي ٠٠ كان صورة أخاذة ، عبقرية الملامح والالوان والسمات ، لقدرة فرانس كفنان منطلق لا سبيل الى أن تقف أمام ريشته وأفكاره أية سدود أو قيـــود ٠ وأذكر كيف كنا نعض أصابعنا أسفا ، على جهلنا باللغـة الفرنسية ، لنقرأ المزيد مما كتبه (اناتول فرانس)

ولم يطلْ بنا الانتظار ، فقد ترجم له من لا أذكر اسمه الآن ـ وليس من أعلام الترجمة ـ كتابا باسم (حديقة أو مائدة ابيقور) فيلسوف اللذة المعروف ثم وقع في أيدينا كتاب آخر للامير (شكيب ارسلان) عن (اناتول فرانس في مباذله) وبذلك توهمنا اننا قد استكملنا بعض ما كان ينقصنا عن الالمام المعقول بأدب (اناتول فرانس) ، ومن المؤسف اننا لا نجد من يهتم باعادة طبع هذه الكتب اليوم ،لنعود الى شرائها ، بعد أن بعتها في مزاد •

واذ أذكر هذه القصص ، لا أنسى ، ولا ينسى رصفاؤنا الشيوخ ، رواية نقلها الى العربية (طانيوس عبده) تحت عنوان (أهوال الاستبداد) لكاتب روسي نسيت اسمه الآن ، ثم (انّا كارينينا) لتولوستوي ولم تكن قصة (الحرب والسلام) وهي من أشهر أعمال تولوستوي قد نقلت الى العربية بعد ، ولكن لم يفتتنا أن نقرأ ما يكتب عنها في المجلات والصحف وعن تولوستوي نفسه ، ومازلت أذكر كيف كان تطلعنا الى انتاجه يزداد ويحتدم

وبالاخص يوم قرأنا كلمة نسبت الى (بير نارد شو) يقول فيها عن كتاب لم ينقل الى العربية باسم (ما هو الفن ؟) لتولوستوي : (ها نحن نسمع صـوت أستاذ بحق) ·· وبالتتبع وبما كانت تحفـل به مجلات تلك الايام ، عن أعاظم كتاب الادب العالمي ، استطعنا أن نكون حصيلة لا بأس بها من المعلومات والافكار عن كثيرين ممن ذكرت وممن لا يتسـع الوقت لذكرهم فى هذا الحديث ·

أما أدب المهجر ، وعلى الاخص من أدبائه (جبران خليل جبران) و (ايليا أبو ماضى) و(ميخائيـل نعيمة)فليس بيننا من ينكر أثرهم فى بداية مراحل هذه الثقافة الذاتية ، ومثل هذا الادب وفى بداية تلك المرحلة أيضا ، يمكن أن نذكر كتب (مصطفى لطفى المنفلوطى) ··· ولكن ما كدنا نوغل فى الامّهات من كتب الادب العربي ، وفى الروائع من المنقـول الى العربية من الادب العـالمي ، ولجنة التأليف والترجمة والنشر فى مصر صاحبة الفضـل الكبير ، فى هذا النقل ، حتى أخذنا نشعر بأن أدب

المهجر يمكن أن يوقظ المشاعر ويوجهها نحو اجواء الفن ، ولكنه لا ينميها ، ولا يبنى العضلات الفكرية القوية ، وان أدب المنفلوطي يمكن أن يصلح للشداة والناشئين اذ يغرى بالقراءة ، ويعين على تكوين محصول قوي أحسن المنفلوطي اختياره من مفردات اللغة العربية ، التى يسهل تناولها وربما هضمها فى قصة كما جدولين أو سيرانودى برجراك، بينما يتعذر هذا الهضم على الشادى والناشيء ، اذا ما قرأ « البيان والتبيين » للجاحظ ، أو « مقدمة ابن خلدون » أو أى كتاب لابى حيان التوحيدي •

أطلت دون شك ، فيما يبدو استطرادا ، وجنوحا عن الحديث عن القمة التى لم تكتشف،ولكنى أتحدث عن مسيرة ثقافية عشناها مع الفقيد فى ظروف ، كانت فورة الشباب ، ونوازع الطموح ومشاعر الايمان بحق الوطن علينا ، تخفف من عسرها ووعثاء الرحلة ووعورة مسالكها ، مع ضعف الموارد وانعدام أسباب الدعة والرخاء •• بل وانعدام الضوء الذى نسهر به عاكفين على القراءة

والبحث والمتابعة باستثناء (الفانوس الهندي) الذى نفضّل الحجم الصغير منه ، لندخله معنا في « الناموسية » ، رغم شدة الحر ، واحتباس النسمة ، هربا من البعوض ، واصرارا على القراءة والدرس مع عدم التخلّف عن العمل فى الوظائف التى نشغلها فى أوقات الدوام المقررة ، وقد كانت تعرف البداية فى الصباح ، ولا تعترف بالنهاية ، ما دام هناك عمل يجب أن يُؤدّى ، ولو استغرق ساعات طويلة من الليل . ولا أستطيع أن أؤرخ لدخول مايسمى (الاتريك) فى حياتنا ولكنى أذكر فرحتنا به حين أصبح من الميسور شراؤه ، بفتيلته وغازه ، وعملية نفخه وشحنه بالهواء ، ولا أخفى اننا كنا نشعر بالزهو ، حين نستعد به لاستقبال الزائرين والضيوف ، ولعل انتفاخة الزهو ونحن نراه يضيء (المجلس) كانت لاتقلّ عن انتفاخ الاتريك نفسه ، مع احساس بأننا ـ والحمد لله ـ قد أخذنا طريقنا الى ماكنا نسمع عنه ، ولا نرى له أثرا من حضارة القرن العشرين

وبعد .. فقد قلت ان حمزة شحاتة يبدو ، وكأنه قد ولد قمة منذ درجت قدماه على تراب هذه الارض ، وللقارىء أن يسمي هذا مبالغة واسرافا فى التقدير ، ولا أنكر ان التعبير ينبض بهذا المعنى ولكن عندنا من الشواهد ، مايجعلنا نتساءل ونحن نستعرضها : متى ؟؟؟ وكيف ؟ استطاع حمزة أن يهضم كل الذى هضمه وتمثله من ثقافات ، مصادرها التراث العربي القديم من جهة ، ثم ماشهده الادب العربي من تطور خلال فترة يمكن أن تحدد بما لا يقل عن قرن من الزمان من جهة أخرى .

صحيح أنه كان يقرأ مانقرأ ... وصحيح ان ماكان يصل الى أيدينا من الكتب ، كان يصل اليه أيضا ولكن ، كيف تانىله ذلك النضج العقلي والفني وهو بين مرحلة الصبا الغض والشباب فى فجره دون ضحاه ؟



مَولده وَتعليمه ..

ولد حمزة شـــحاتة بمكة المكرمة فى عام ألف وثلاثمائة وثمانية وعشرين ، وأتمّ دراســـته فى مدرسة الفلاح بجدة ، وكان واحــدا ممن ابتعثهم مؤسس هــذه المدرســـة ومثيلتها فى مكة المرحوم (الحاج محمد علي زينل رضـــا) للدراســـة أو لاستكمالها فى الهنــد ... ولست أدرى ان كان قد زامل السيد (محمد حسن كتبى) أم لا ..؟ ولكنى لا أشك فى أنه قد زامل المرحوم الشيخ (عبدالقادر عثمان) ، اذ أجد لحمزة قصيدة عارضها ، أورد عليها من نفس الوزن والقافية الشيخ (عبد القادر) .. وحمزة يقول فيها وهو يعارض قصيدة لشوقى : فى مطلعها :

سلام النيل ياغندى   وهذا الزهر من عندى

يقول :

ولــو ساعفنــى الدهر   لقابلتك فــى الهنـــد
ولكنـــى كما تـــدرى   فقيــر عاثــر الجـــد
أضعت البيت والقـــر   شين فى التهليس والجد
وبعتُ العنـــزة الكبـرى   على صاحبنــا السِّندى
وأمــا سائـر العَفْش   فقــد صــادره وجـدى

ووجدى هنا شخصية حقيقية ، فقد كان أحد ضباط الشرطة فى جدة .

ثم يقول :

لقـــد أوحشتنى جـدا   ومالك سلــوة بعـــدى
كلانــا مخفــق المسعى   وَبرْبَنْـدك بربنـــدى
فأرثيـــك وترثينـــى   لعل رثاءنا يُجـــدى
وقد ضيّعنى قومــــى   وقدما انكروا جهـــدى
ومـــا بددت من وقــت   وما فرّقت من نقـــد
ولمـــا طقّنى الفقـــر   وأضحت أمتى ضِـدى
توكّلت علـــى المـــولى   وعوّلت عـــلى زَنْـدى

أبيع الفولِ والحُلْبــة والفِصْفِصَ والمنْـدِى
فطـوراً الْتَـقِى أكْلى وطورا أطْفـح الدِّرْدِى

ولا بأس بأن نقرأ المزيد من هـذه القصـيدة الضاحكة فهو يقول :

وكان الحـال مسـتورا وأشغالى على قَـدِّى
ولى جار رقيـق الحال يدعى الحاجْ خوجَنْـدى
ركنت اليـه من غُلْبى فجـازانى عـلى وِدِّى
بـأن رشـَّحنى يـوما لدى التعْدين فى المهْـد

وهو يقصد شركة التعدين التى كانت أعطيت امتيـاز التنقيب عن الذهب فى المهد بالقـرب من المدينة المنورة

فرحـت وكنت مِرْطانـا أسمِّى النور ، نورْمَنْدى
فرقّـانى المديـر الى وظيفـة كاتب الجَـرْد
وكـان اذا رآنى قـا ل(قُودمورْننج ،اوفرند)
فلمـا ثـارت الحـرب وجرَّ الويـل هتلـردى
أقالـونى وردّونـى وصحّ الجمع فى جُنْدى
وناهيـك بحـرِّ نـا م فـى البَرْدِ بلادَ قَـدِى

والد قدى ، هو الدَّقْدِيق ، ولا أعرف أصل الكلمة ، ولكن يقصد بها نوع من الاغطية التى ترتفق عند النوم اتقاء للبرد كالتى نسميها (البطّانية) فى هذه الايام ٠٠ أو قد تكون العباءة تصنع من الصوف والوبر فى جبال الحجاز والطائف

تمنَّى سُتْرَةَ الحال فلم يعثر على صلدى

والصلد هنا قطعة نقد ايطالية ٠٠٠

ولو انصفت الايام حابته باوكلندى

والاوكلاند ، نوع من السيارات الامريكية الفارهة ، تصنع فى تلك الايام ، ولعل القدماء من موردى السيارات يعرفون مزاياها ، أو يعرفون ، ما الذى حل بها ، فلم تعد تتواجد فى الاسواق ٠

الى أن يقول :

فما رأيك فى أمرى اذا جئتكُ والقندى

والقندى هنا هو صديقه الحميم (أحمد قنديل) الذى نَدَر أن يُرى (حمزة) فى مكان دون أن يرى

معه القنديل وقد ظلَّ ذلك شأنهما سنين فى المملكة ، ثم فى القاهرة .

وهل عنـدك ما يكفى من الشـاول والهُرْد
وهل نلقـاك مرتاحا الينا ، أو شَلُوجَلْدِى

ولا أعرف ماهو الشاول ، ولعله الارز فى لغة الهنود ، والهرد بهار معروف ، أما شلو .. فكلمة هندية يطرد بهـا من لا تحب أن تراه كمـا نقول (برّة .. أو اطلع برة) ... وجلدى .. كلمة هندية أيضا معناها (بسرعة)

وليس فى كتاب الاستاذ عبد السلام الساسي ، ما يشير الى تاريخ نظم هذه القصيدة ، ولكن هناك مايدل على انهـا نُظمت فى أيام الحـرب العالمية الثانية وهو قوله :

فلما ثارت الحرب وجرّ الويل هتلردى

ونجد فى (شعراء الحجاز فى العصر الحديث) للاستاذ (عبد السلام الساسي) أيضا : قصيدة

المرحوم الشيخ (عبد القادر عثمان) من نفس الوزن والقافية يقول فيها :

تحايا الحب والوجد لاصحابيَ في الهند
وأشواقي تُؤَرِّقني وترمي الجفن بالسهد
وذكرى لا تفارقني ولو وُوريتُ في لحدي

ومن أهمّ مايلفت النظر في هذه القصيدة قوله :

ولِي أشعار أخفيها لتنشر في الورى بعدي
سكبت حوادثي فيها وقد فاقت على العدّ

فالذين يؤرخون للادب السعودى ، أو يجمعون شتاته ، قد يجدون هذه الاشعار التى يخفيها الشاعر لتنشر فى الورى بعد وفاته ، خصوصا وانه قد سكب فيها حوادثه .

وهو لا شك يردّ على حمزة حين يقول :

لئن ضاقت بما رحبت عليَّ الارض فى الهند
أتيت ديار أمجاد وعُرْبا من بنى سعد
فألقيت عصا التِّسْيار بين معالم المجد
ولاقيت من التكريم ألوانا مع الحمد

ففي الاحســـاء ترحيب يرد صـــداه فـى نجد
وفي جـدة والطائــف ايــاد سُــجِّلت عندى

وهو يختتم القصيدة بهذه الابيات التي تعود الى الشـكوى ، من وعثاء الحيـــاة التى كان يلقاها فلا يختلف عن المضمون الذى ذهب اليه حمزة ، الا فى روح السخرية الضاحكة عند حمزة ، والعابسة الجادة عند الشيخ (عبـد القادر عثمـان) ، فهو يقول :

اصـــيحابي تلومونى ومابقيت من جهـــد
أترضــــون بأن أحيا كئيبـا عاثر الجَـدِّ
وأقضي العمر فى نَصَبٍ وفى شَــغَب وفى كدّ
واحسب مال قارون وما خــردلة عنـــدى

وفى هذا البيت اشارة الى أنه كان يعمل محاسبا فى أحد البيوت التجارية ، التى يشبه ثراءها بثراء قارون ولا ندرى بالطبــع أى بيت هو ، فى تلك الايام ..

واحسب مــال قارون وما خــردلة عندى

اضيء كأنني المصباح والنيران فى كبدى
فهل فى شرعة الانصاف يحيى الحر كالعبد
اذا لم يك من حد فانى واضع الحد

ولا ندرى كيف وضع الشيخ (عبد القادر) هذا الحد ، وان كنا نعرف انه توفى مستور الحال موفور النعمة رحمه الله ٠

وهذا الشعر الضاحك في قصيدة حمزة ، الذى تختلط فيه العامية بالفصحى ، تزعمه ولعله أول من بدأه ، الاستاذ (حسين شفيق المصري) رحمه الله وله في كثير من مجلات مصر ، وعلى الاخص (الفكاهة) من مجلات دار الهلال ، روائع حافلة بالتعبير الكاريكاتورى عن مشاكل مصر ، يبلغ النقد فيه بهذا الاسلوب الساخر الضاحك ، مالم تكن تبلغه المقالات الجادة بأقلام كبار الكتاب ، والسبب بالطبع هو اقترابه من مستوى الجماهير ، وهى فى مصر مولعة بالنكتة والمفارقة ، وقد شارك فى هذا النوع من الشعر وبرع فيه ، الى حد القدرة على ارتجاله ، الشاعر المرحوم (محمد مصطفى

حمام) ••• ولا أعرف من الذى سبق حمزة فى المملكة ، ولكن الاستاذ (أحمد قنديل) وهو كما قلنا صديق حمزة ورفيق دربه الطويل ، يكاد يكون الوحيد فى المملكة اليوم ، الذى مايزال يتحفنا به حتى الآن •

قلنا انه ابتعث الى الهند ، وهناك من يقول أنه لم يبتعث ، وانما طلب للعمل فى بيت الحاج (محمد على زينل رضا) رحمه الله ، بغرض تدريبه على امساك الدفاتر التجارية فى بيت زينل فى جدة ، وقد لايخلو هذا من الصحة ، اذ كان حمزة من الاوائل الذين نظموا قيودهم التجارية ، عندما كان يمارس التجارة مع أخيه المرحوم الشيخ (محمد نور شحاتة) فى جدة ، بطريقة القيد المزدوج ، وهو مالم يعرف أو يأخذ به المحاسبون فى البيوت التجارية عندنا ، الا منذ أقل من خمسة عشر عاما ، واذا صدق من روى لى ذلك ، وليس لى أن أشك ، وقد كان الراوى رجلا ممن مارسوا

الاعمال الحسابية ، لاكثر من بيت تجاري ، فى جدة الى أن أصبح من كبار الموظفين فى أحد البنوك •

ثم ، الاغــرب ، من هــــذا كله ان تلك الآفاق الثقافية التى كان يحلق فيها حمزة حين يتحدث أو يكتب ، شعرا أو نثرا ، لم تكن تعتمد على مصـــادر فى غير اللغة العربية اذ لم يكن يجيد الانجليزية ، وان كان لا يجهل الكثير من مفرداتها ، ولا شك أن اقامته فى الهند لم تتــح له أن يتعلم الاوردية وهى الاكثر شيوعا واستعمالا ، فضلا عن السنسكريتية



الكاتب .. الخطيب .. الفنّان !

ومع ان حمزة رحمه الله قد كتب الكثير الذى لم ينشر ، ومنه رسائله الى أصـدقائه وكل رسالة منهـا تحفة جـديرة بأن تعتبر نموذجا لارفع من مستويات النثر فى الادب العربي الحديث ، فان ما أجده فى متناول اليد ، وأنا أكتب هذه السطور ، هو محاضرته التى ألقاها فى جمعيـة الاسـعاف الخيري بمكة المكرمة وكانت كجميع أعماله الادبية لم تنشر ، وكل حظها من الشهرة والانتشـار هو سماعها يوم ألقاها ، وكنت ممن سمعوها ، ومازلت أذكر كيف ازدحم المكان الذى ألقيت فيه ـ وهو البنـاية التى كانت دائرة للبريد فى عهد الحـكم العثماني ثم الهاشمي ثم نقل البريد الى القشاشيـة لتصبح البناية مقرا لجمعية الاسـعاف ـ بل أذكر

كيف بلغ ازدحام الراغبين فى الاستماع الى المحاضرة ، حد وقوف الكثيرين فى السلالم ، وفى الشارع يصغون اليه وهو يلقيها بصوته الجهوري ـ وليس المنبري ـ ولا بد أن أذكر انه كان رائعا فى القائه ، ساحرا فى السيطرة على أعصابه ، فليس هناك انفعال ، ولا اصطناع للحماس ، ولا توثب أو اشارات بالايدى ، مما كانوا يعلموننا فى المدارس أن نلتزم به عندما نلقى الخطب فى الاحتفالات ٠٠ فاذا لم ننس ان جهاز الراديو لم يكن قد انتشر فى المملكة وان فن الالقاء الاذاعي الحديث أو القديم لم يكن معروفا ، فان طريقة القائه لهذه المحاضرة كانت وحدها ظاهرة ما أزال أذكرها ولا أملك الا أن أعجب بها وأعدها فيما يُعَدّ له من تفرد وامتياز فى الكثير مما تفرد وامتاز به مما أرجو أن يتسع الوقت لايجاز الحديث عنه ٠

وكأنى ـ والحديث عن المحاضرة ـ قرأت للاستاذ (محمد حسين زيدان) ، ان حمزة قد

ارتكز واستمد عناصر محاضرته من كتــاب (علم الاجتماع) لنقولا حداد ••• وأنا أختزن ماقرأته للاستاذ (الزيدان) الى هذه اللحظة لاقول له ولمـن قديرى رأيه : ان حمزة كان يتمتع فعــلا بمعـدة فكرية جبارة القدرة على الهضم والتمثيل ، وكان هذا الكتاب مما تواجد عنــدنا مع الكثير غيره من الكتب التي ذكرت بعضها ، ولكن الفرق كبير جدا بين القدرة على الهضم والتمثيل ، وبين العمـل المبتكر الاصيل فى هــذه المحاضرة بوجه خاص • ولا ينسى الاستاذ « محمد حســين زيدان » ، كمـا لا ينسى الاساتذة « محمد عمر توفيق » ، و « أحمد قنديل » ، و « عبــد الله عريف » ، و « حسين بن سرحان » ، و « محمد حسن فقى » ، ان « حمزة » كان من القلائل ـ فى العــالم العــربي ـ الذين لا يرضون لانفسهم أو لاعمالهم أن تلمع فيها بارقة اقتباس أو تأثر أو تقليد ••• كانت أبرز خصائصه ـ وهي فى نفس الوقت سبب الكثير من المتاعب التى واجهها فى حياته ـ ذلك التعشق الملهوف للاستقلال

الفكري ، والحرص الممض على الابتداع ، والترفع عن الاتباع ، ليس فقط فيما يكتب من شعر أو نثر ، أو فيما يديره من حوار ونقاش ، وانما في مسيرة حياته الخاصة حتى لقد كان يتعذر على مخالطيه وعشرائه من أصدقائه بل وأهله أن يفسروا الكثير والغريب ـ بل والمذهل أحيانا ـ من تصرفاته ، وليس من تفسير سوى هذا التعشق للاستقلال والتفرد بالخصائص والسجايا وانماط السلوك ...

وقبل أن استشهد ببعض ما جاء في هذه المحاضرة من آرائه ، وفي تعبيره عن هذه الآراء كنموذج لاسلوبه ، أحب أن أذكر ماقد يلقي بعض الضوء على قدراته وطاقاته ، مما قد لايدخل في الادب والفلسفة والفن ، ولكنه ـ مع ذلك ـ يستكمل الصورة الى الحد الذى يقرّبها من التصور وان كان سيظل بعيدا أشد البعد عن كشف أو اكتشاف

المكنون والسامق من سموها ، والباذخ المترف من مدخورها ٠

يحضرني حديث دار بيني وبين معالي الاستاذ (حسن آل الشيخ) ، عن حمزة رحمه الله ، وكان قد زاره في منزله في الجيزة ، قبل وفاته بأسابيع قلائل ٠٠ وخلاصة حديث الاستاذ الوزير عن الفقيد ، هو اعجابه البالغ بسعة آفاقه ، وعمق تفكيره وبعد نظراته وتأملاته ، وطلاوة حديثه ، وسرعة خاطره ٠٠ وأذكر أني قلت لمعاليه : ان خصيصة حمزة التي تبدو خليقة من خلائق العبقرية النادرة ، هي القدرة على اتقان مايولع باتقانه ، بحيث لم يكن يرضى قط الا بأقصى مراتب التفوّق فيما يعن له أن يُعنى بمعرفته ودرسه ٠٠٠ كان لايكتفي بمجرد الالمام ، على قاعدة الاخذ من كل فن بطرف ، وانما الذي يجهد نفسه فيه ، هو استغراق واستيعاب كل مايستهدفه من عناصر تكوينه ومادة وجوده ٠٠٠ ولا يقف ماكان يولع به

عند الشعر أو النثر أو الفلسفة أو علوم اللغة العربية وتاريخها وأدبها القديم والحديث ، أو مايتصل بكل ذلك من المعارف وألوان الثقافة وأغذية الفكر ، بل ينسحب هذا الحرص على التفوق والاتقان حتى على أسباب اللهو ٠٠ فقد تعشّق الموسيقى والعزف على العود مثلا ، فلم يكتفِ بأن يكون واحدا من المعدودين في الحجاز بالبراعة النادرة في هذا العزف ، وانما عكف على دراسة الموسيقى العربية ، مقامات وأنغاما ومصادر لهذه المقامات والانغام وتاريخها عند الفرس ، وفى الاندلس ، وعند الاتراك ، وفى حلب ، ومايتولد من هذه المقامات وكيف تتعاشق وأين تتنافر ، وما يقال عن علاقة بعضها بالساعة من الليل أو النهار ٠٠٠ ثم ٠٠ الموسيقى (صوت) ٠٠ فلابد اذن من دراسة « علم الصوت » فى مصادره من كتب الطبيعة فى مستوى المراجع ، وليس فى مستوى الكتب المدرسية ٠٠٠ كيف يحدث ؟ ٠٠ وكيف يتردد ؟ وهل يفنى أم لا يفنى ؟ ولماذا لا يفنى ؟

والدليل أو الادلة على كل ذلك ، وكيف يبلغ من تأثيره في خلخلة الهواء ، أو تمويجه وتحريكه أن تحطم (سحبة) القوس على وتر من أوتار الكمان الزجاج أو ماهو في صلابة الزجاج من الاشياء ٠٠ ثم ينتهى فيقول لى : ومنذ أكثر من عشرين عاما ـ ما الذى يمنع أن يخترعوا آلة مدمرة ، لاتعتمد على القنــابل أو الديناميت أو حتى على الذرة ، وانما على الصوت وحده ؟

وقد تمنّيت ان لو كان معي أو كنت أنا معه فى القاهرة ، عندما كانت اسرائيل تستعرض عضلاتها بعــد حرب الخامس من يو نيه فيما سُــمّي حرب الاســتنزاف ، فتخترق بطائراتها الامريكية حاجز الصوت ، فتهشّم الزجاج وتهدّم المتداعى من المبانى دون أن تلقي قنبلة ، وانما بالصــــوت فقط ٠٠ كنت تمنيت ذلك لاذكره بما استنتجه فى ذات ليلة كنا نتبادل فيها الاحاديث ، عن مواضيع مختلفة ، منها الموسيقى ٠٠٠ والصوت ٠٠٠ ولى أن أقول

اليوم ان زهده فى الشهرة وذيوع الصيت ـ رغم ماثبت بعد وفاته من سطوع هـذه الشهرة وذيوع هذا الصيت ـ قد جنى عليه فى هذا المجال الغني والسخي بالعطـاء ، اذ أحسب ان لو أراد حمزة أن يكون فى عداد كبار الملحنين فى مصر ، لما أعجزه ذلك ، وقد بلغ فى الموسـيقى مستوى العلمـاء ، ومازلت أذكر كيف كان يقع على الاخطاء فى تلحين كبـار الموسيقيين فى مصر ويذهب فى نقـدها والتوائها ، أو فى اكتشـاف السرقة أو التـأثر بالشيخ سـيد درويش أو بمن يعرفهم من أئمة الموسيقى التركية القديمة الى حد التصحيح بعزف اللحن كما ينبغى أن يكون ، وتشعر ان اللحن قد استقام فعلا بما يبعثه من الارتياح والانسـجام ثم يقول بعد ذلك : (ما أشد مايخسر الصوت القوي من أصالته وقدرته على الاداء بما يجنيه الملحنون على المطربات والمطربين)

وأصدقاء حمزة القدامي يذكرون كيف كان في مركز البطل الاول في لعبة (الكيرم) عندما شاعت وغزت البيوت في الثلاثينات من هذا القرن ، اذ اتقنها رحمــه الله الى حد كان يحمل المشــهورين بالبراعة فيهــا على السفر من مكة الى جــدة أو بالعكس ، حيثما يكون لمباراته فيها ، وكلنا نذكر كيف كان يندر أن يغلب • والاستاذ (أحمد قنديل) كلاعب شطرنج يستطيع أن يتحدث ـ اذا شاء ـ عن براعة حمزة في هذه اللعبة أيضا • وهواة الرياضة من القــدماء يعــــرفون أو يذكرون على الاقل ، ممارسته لانواعها المتاحة ، مع علمه بتاريخ اللعبة وفوائدها ، والمعدودين من مؤسسيها أو مبتكريها الذين لا أدرى أين وقع على معـــــلوماته عنهم ، والرياضة في تلك الايام ، طارىء جديد على حياة البلدان المتقدمة في العالم العربي ، فضلا عن جدة أو الحجاز ؟!

فارس الحوار .. والرسائل

وأما حمزة كأستاذ فى الحوار وفى الحديث فليس من يمكن أن يكون شبيها له ، الا فيما نسمع أو نقرأ عن كبار الفلاسفة المشّائين ، كسقراط ، وأنا شخصيا لم أعرف له نظيرا حتى اليوم ، على كثرة من عرفت فى المملكة وفى غيرها من نبغاء باستثناء الدكتور طه حسين ، الذى قضيت معه أكثر من نصف ساعة أيام كان مستشارا لوزارة المعارف فى مصر ، وما يستغرب من حمزة وقد مررنا بخلفياته الثقافية ، لايستغرب بالطبع من عالم كالدكتور طه ، تلقى علومه فى الازهر وفى الجامعة المصرية ، ثم فى السوربون •

كان يحدث أن يدير الحديث عن موضوع فكري بحت ، يمكن أن يفهمه المثقفون من أصدقاء حمزة

ولكن أعجب ماكان يمتاز به أنه حتى وهو يتحدث عن موضوع من هذا النوع ، كان يشدّ الاسماع ، حتى ولو كان بين جلسائه أشخاص من عوام الناس وممن لا يمكن أن تكون لهم أدنى صـلة أو علاقة بالموضوع ··· كان يملأ جو الجلسة حركة وحيوية ومرحا ، بما يتتابع فى حديثه من نوادر وطرائف ونكات وتعليقات ، ولا يعفى نفسـه من التمثيل أحيانا بحركة فى العينين أو الانف ، حين لايجـد بدا من تجسيد الصورة الساخرة للفكرة أو للرجل الذى يتحدث عنه ··· وهذا فيما يشبه تدفّق مياه السدود قوة وانطلاقا ، وحفولا بما يشبه الموسوعة من أخبار القـدماء والمحـدثين ، وليس فى الادب والفلسفة أو الشعر فحسب ، وانما فى التـاريخ والسياسة والمبادىء ، وأنظمة الحكم ، ثم ، ليس فى التاريخ العربي أو الاسلامي فقط ، وانما فى تاريخ اليونان والرومان والهنود والفرس والمغول والجرمان ، والصقالبة ، وفى فلسفة كونفوشيوس ، وبوذا ، وأثرهما على شعوب جنوب شرقي آسيا ،

ومنها البرهمية فى الهند وماطرأ عليهــا من تغيّر وتطور ، وعلاقة كلذلك بمسيرة التاريخوالاقتصاد

أعجب من هذا كله ، وما أكثر العجيب والاعجب في حياته وخصائص شخصيته ، احاطته الواســعة بسيرة وحياة بيرناردشـــو ، وبعلاقته بالجمعيــة الفابية ، ويذهب فى هذه الاحاطة الى حد الاعجاب بالكاتب الايرلندي العظيم ، وان كان يصر عـــلى أنه انجليزي ، وحجته ان الرجل ، يعيش ، وينتج ، فى انجلترا منذ غادر مسقط رأسه « دبلن » فى صــباه ، ولم يعــد اليها الا بعد ثلاثين عاما ٠٠٠ وما قرأه من مسرحياته لا يعالج مشــاكل ايرلاندة، وانما هو يعالج مشاكل العالم ، فى شخصيات ليس بينها (ايرلندي) ٠٠ فاذا خطر لك أن تسأله عن أديب من أدباء انجلترا ، أو روسيا أو فرنسا ، وقد كنت أفعل كثيرا فى محــاولة لوزن مدى علمه أو معــلوماته عنهم ، وفى ظنى آنه لابد أن يجهــل الكثير ، فاذا به يفاجئنى بالفهم العميق للمدرســة

الادبية التى ينتمى اليها هذا أو ذاك ، فاذا طال البحث ، تكتشف انه يعرف العلاقة بين هذه المدارس الادبية ، وبين مثيلاتها فى الفنون التشكيلية ٠

ثم لابد أن نعرف أن حمزة قد يكون من القلة القليلة فى هذا العصر فى الادب العربي ، الذين يعنون عنـــاية فائقة تكاد تكون متخصصـــة بأدب الرســـائل ، ولعل الذين يحتفظون برســـائله من أصدقائه يرون الآن كيف ينـــدر أن تخلو رســـالة من رسائله اليهم من ومضات فكره وفلسفته وآرائه وسخريته ، وهو ينطلق فى هـــذه الرسائل ، على سجيّته وكأنه يجد فيها المدى الاوسع لحرية الكلمة التى لايجدها فى مجـــال آخر ٠ ولم أعرف قط ، شاعرا أو كاتبا فنانا فى مســـتواه الرفيع يحرص على أن لا ينشر الابدع والاروع من أعمـــاله باســـتثناء ما نشر أو ما أعتقـــد أنه ضنّ به على التمزيق فى الاعوام الاخيرة من حياته ، ولهـــذا فان مابقى من هذه الاعمال ، لا يزيد عن جزء من

عشرة أو من مئة مما كتب طيلة حياته ٠٠ أو فلنقل طيلة مايقرب من أربعين عاما ندر أن يمرّ فيهـا أسبوع على الاقل دون أن يكتب قصيدة أو رسالة أو أقوالا قلت انها تدخل فى باب (الافوريزم) أو الاقوال المـأثورة من أوســـع الابواب فى الآداب العالمية ٠

★ ★ ★

محاضرته الشهيرة ..

اخواني من الشيوخ يذكرون المحاضرة التي ألقاها حمزة في جمعية الاسعاف في شهر ذي الحجة عام ألف وثلاثمائة وتسعة وخمسين .. ولاشك اني سعيد الحظ حين تلقيت هدية الدكتور منصور ابراهيم الحازمي وهي الجزء الاول من كتابه : (معجم المصادر الصحفية) عما نشر من المقالات والقصائد والبحوث في جريدة ام القرى في الفترة من سنة ألف وثلاثمائة وثلاثة وأربعين الى سنة ألف وثلاثمئة وخمسة وستين ، وأجده يمدّني بما لم يكن في الوسع أن أذكره اذ يقول في الصفحة الثانية والخمسين : (أما قلة المحاضرات قبل عام ٩٣٦ م فيرجع فيما يبدو ، الى عدم وجود رابطة تجمع بين الناشئة من الادباء المثقفين) ثم يقول : (ولعل هذه الرابطة قد بدأت تبرز الى الوجود

عندما تأسست جمعية الاسعاف الخيرى بمكة المكرمة عام ألف وثلاثمئة وخمسة وخمسين ، وهى السنة التى شهدت بدء النشاط الثقافى فى القاء المحاضرات العامة ، وقد رأينا جمعية الاسعاف تجتذب الكثير من الادباء والمفكرين والاطباء والعلماء ... ولاشك أن من يؤرخ للحركة الثقافية فى البلاد السعودية ، لايستطيع أن ينسى الدور المهم الذى لعبته هذه الجمعية الطبية الخيرية ، والتى تأسست بعد سنوات قليلة من تأسيس الحكم السعودى فى الحجاز) .. وينهى الدكتور منصور ابراهيم الحازمي هذه الملاحظة بقوله : (الطب ، والدين ، والقضايا الاسلامية ، والتاريخ والتراجم ...) ثم يضيف : (وهناك بعض المحاضرات التى تناولت موضوعات أخرى كالادب والصحافة والاجتماع والاقتصاد والتعليم ولكنها قليلة اذا ماقيست بعدد المحاضرات التى تناولت الموضوعات الرئيسية الثلاثة التىذكرناها) وفى الصفحة التاسعة والعشرين بعد المئتين ، ضمن

قائمة (المحاضرات) يذكر الدكتور منصور ما يشير الى ان جريدة ام القرى قد نشرت (خبرا) عن محاضرة ألقاها (حمزة شحاتة) بعنوان (الخلق الكامل عنوان الرجولة) .

ولم تنشر هذه المحاضرة كما سبق أن أشرت ورفض حمزة يرحمه الله أن يصدرها في كتاب، مستقلة أو مع أى مجموعة من شعره أو نثره ... ولكنها ظلت المحاضرة التى لم ينسها أحد سواء ممن سمعوها منه أو سمعوا عنها ولعلهم ما يزالون يسمعون عنها حتى اليوم .

وهنا لا بدّ من وقفة قصيرة ، نلتمس بها نوعا من وزن الأسلوب الذى كتب به حمزة هذه المحاضرة وتمعن مستوى الأستاذية فى اللغة ، نحوا وصرفا ، ومفردات ، وقدرة على أداء المعنى وانتقاء الألفاظ التى يراعى فيها دقة الجرس الموسيقى فى اللفظ بالنسبة للجملة ، ثم منهج التحليل للموضوع الذى عالجه وهو كما أراده لا كما اقترح عليه وكما نشرت عنه جريدة أم القرى ... فقد عدل عن (الخلق

الكامل عنوان الرجولة) واختار (الرجولة عماد الخلق الفاضل) .

والتماس الوزن هنا يعود بنا الى ما قلته من أن حمزة يبدو وكأنه قد ولد ودرج على تراب هذه الأرض قمة شامخة ... ولا أقول ولد عبقريا ، اذ خصيصة العبقرى ، ان يولد بطاقة قد تبكر فى الظهور وقد تتأخر الى ان يتاح لها التفجر والاندفاع بينما حمزة ، قد بدا منذ عرفه عشاق الحرف والكلمة قمة لا تدرى كيف تكونت ...؟

ولد حمزة ، فى عام ألف وثلاثمئة وثمانية وعشرين ـ كما سبق ان اشرت ـ والقى هذه المحاضرة ، فى عام ألف وثلاثمئة وتسعة وخمسين فهو يومها قد أتم الثلاثين من عمره ... ونحن نعلم ان هذه المحاضرة ليست أول أعماله ، فقد سبق أن ذكرت انى عرفته فى عام ألف وثلاثمئة وواحد وخمسين ، أي يوم كان لايزال فى الثالثة والعشرين ويعرفه قبلى الأستاذ (عبد الوهاب آشي) والأستاذ (محمد سعيد عامودي) والأستاذ (محمد حسن

عواد) ۰۰۰ وكلهم عرفوه شاعرا فى الذروة وناثرا يمتلك ناصـية اللغة والأسلوب امتـلاك أسـتاذية تعمقت فنها وعلمها فى الامهات من المصادر ۰

ومرة أخرى ، أجد نفسى مضطرا أن أتساءل متى؟ وكيف ؟ أتيح له أن يبلغ هذه المرتبة التى نفترض انه بلغها فى العشرين ۰۰ ومن المفروض انه لم يكن الوحيد الذى تخرّج من مدرسة الفلاح ولم يكن أيضا الوحيد الذى ابتعث الى الهند ، لم يكن الوحيد الذى قـرأ ما قرأناه وظللنـا نقرأه من مصادر الثقـافة وينابيع الفكر ۰

يستطيع من يتفرغ ، لبحث أدب حمزة ، فيمـا نرجو ، ان يجمع من شعره ، ونثره ، وعلى الأخص رسائله ، ان يجيب بما أسمِّيه اكتشافا للقصة ، التى اقدِّم اللمحة عنها فى هذا الحديث ، واللمحة ، لاأكثر ولا أقل ۰

بلغ عدد صـفحات هـذه المحاضـرة مئة واحدى وعشـرين صـفحة ، بخط يده على ورق مقاسـه (متوسط) واستغرق القاؤها أكثر من أربع ساعات

وقوطعت بالتصفيق أكثر من ثلاثين مرة واجتمع لسماعها عدد من النـاس قلّ ان اجتمع لسـماع أى محاضرة سبقتها فى جمعية الاسـعاف ٠٠ فماذا فى هذه المحاضرة ؟؟

لا يتسع الوقت لعرض الكثير ٠٠ ولكنى أستطيع أن أقدم النّتف ، والقطوف التى تلمـح ، أو تلقى بعض الضوء على الكثير مما فيها مما لا أجد له اسما أكثر أو أقل من أنه فكر ، وأدب ، وفلسفة ، وفن ٠

يبدأ المحاضرة بقوله : (عندما يكون الاقدام على المخاطرة ضرورة ٠٠ لا يعدّ شجاعة) ٠

ويعلق على هذه الضرورة ، فيقول : (للضرورة فى حساب الحياة أبعد الأثر ، والتطور ما لعب دوره الخطير فى تكميل أسباب الحياة الاجتماعية الا على أساس الضرورة الحافزة ٠)

ويقدم أسبابا لعدوله عن العنوان الذى اقترح عليه للمحاضرة أو لموضوعها فيقول :

(ان حديثى فى الواقع ، ولا أسميه محاضرة ، عن الخلق الكامل كعمـاد للرجـولة ، لا عن الضرورة

كأساس للخلق الفاضل ، أو كعماد للرجولة ، لكنى اخترت أن أمهد لهذا الحـديث هذا التمهيد ، وأن أزحزح العنوان المقترح عن وضعه قليـلا فيكـون (الرجولة عماد الخلق الفاضل) لا الكامل ، فما يزال الكمال نشدة الحياة المطولة ووهمها الذى تنسـاق أبدا فى طِلَابه • وما دامت مراحل الحيـاة تمتـدّ ولا تنتهي ، وقوافل الأحيـاء تسـير ما يثقل خطاها الزمن الجاهد ، وما دام التغير الدائم ، دأب الحيـاة وسبيل ما فيها ، فهل نقول ان شيئا كمل ، قبل ان يوفّى على غايته ويبلغ تمامه ؟) •

ويضيف ، وكأنه يعتذر عن (زحزحة العنـوان) فيقول :

(وأنا لست أعرف معنى لهذه الحرية ، بيد أنى ألفت أن أطلق لفكرى عنانه •• فهذا عندى أخلق ، بأن يجعلنى أكثر شعورا بحياتى ، وفهما لها ، وأنا طامع بعد ، فى أن تحمدوا لى نتائج هذه الحرية ان شاء الله) •

ثم يفلسف ألفته فى اطلاق العنان لفكره فيقول :

(لا تكون النظرة الى حقائق الحياة والفكر خالصة الا من أناس يرون أنفسهم فوق قيودها وقوالبهـا ، وهؤلاء يدعون بالمجانين تارة ، وبالفلاسـفة وقادة الفكر تارة ، لأن حظ الصفات والمبادىء والنزعات يرتبط دائما بحظ الداعين اليها والمتصفين بها من النجاح . هذه حقيقة فطن لها الناس من القدم فقالوا كثيرا ما معناه :

النـاس من يلق خـيرا قائلون له
ما يشتهى ولأم المخطىء الهبـل

ليس هذا حظّ الأحياء فحسب ، بل حظ المبادىء والاغانى والنظريات ، والفضـائل وحظ موقفى بينكم الليلة ...) .

ويمضى ، فيقول :

(وأنا أريد التجـربة ، والتعـرية كبـاحث ، لا كمحاضر ، فانى لو قصرت كلامى على الرجولة أو على الخلق الفاضـل ، خشيت أن يتحوّل حـديثى الى موعظة ، لا تعدو أن تكون تمدّحا حماسيا بالفضائل دون تحليلها وردها الى مصادرها ، وتحديد قيمهـا

ومعاييرها ، وأثرها من صميم الحياة ، وعلاقتهـــا بالنفوس) .

والتجريد مبـــدأ قديم لي ، وهو مرضي الذى لاأشفى منه،عرفنى به من عرفوا طريقتى فىالحياة ومن قرأوا نظراتى القديمة فى الخير والشر ، وفى الفضائل والرزائل ، وفى الحب .. وفى الشعر) .

(فاذا ظن ظانٌّ ان فيمـــا أقوله الليلة خلطـــا أو اطلاقا أو شذوذا ، فانمـــا يكون هذا الظن معقولا لا أضيق به ، فهو عندى شبيه بالنظرة الى مجهـــول لم يتكشف ، لا الى مجهول أخذ سبيله فى التكشف والوضـــوح) .

ويمضى بعد هذه المقدمة القصيرة ، فى ما يشبه التحليـــق تارة ، والغوص تارة ، وراء موضـــوعه ، بحيث يرينا دنيا مترامية الأطراف . تلتف فيهـــا خمائل الفكر ، وتتفتح فى ساحاتها مساتير الحقائق وتتلألا فى سمائها وأفلاكها انهار من الضوء تمعن فى أبعاد سحيقة ، قد تحتاج لاستيعابها الى منظار مقرِّب يسعفك بالتفاصيل ومقومات البناء والتكوين

وتسرف فى الاقتراب والاشعاع ، حتى تبهر البصر، وترهق أو تزلزل ما استقر فى الذهن من القواعد والأسس للكثير من المسلمات والبدَهِيّات .

وقد رأينا في هذه المقدمة على قصرها ، مستوى الأسلوب ، الذى سبق أن تحدثْتُ عنه ، وما أظن ان أحدا من الكتاب فى المملكة ، وفى غيرها ، تلك الايام قد بلغ هـذا الأوج من الجمـال والترابط وتوخى جرس اللفظ فى اتساقه مـع الجملة ، وهـذا الى الأستاذية ، التى لا تقف عند حد المعرفة المتمكنة من اللغة ودقائقها ومن نحوها وصرفها ومناهل البلاغة ومآتيها ، وانما تتخطى كل ذلك الى فنية الاستذة اذا جاز التعبير .



شعره ..

وقبل أن أمضى فى التحدث عن الشعر والاقوال أجد نفسى ملزما ، بأن أقول ، ان حمزة رحمه الله لم يمارس كتابة القصة أو الرواية أو المسرحية ، أو هذا هو الأرجح عندى، بعد أن أتيح لى استعراض ما بقى لدى ورثته من أعمال •

الذى نشر من شعر حمزة شحاتة ، ليس أقل القليل فحسب ، وانما هو قطرة من بحر ، والذى لم ينشر وتفرَّق لدى بعض أصدقائه ، لا سبيل للوصول اليه الا بأن يتكرّموا ، فيبعثوه الي اذا شاءوا ، أو الى معالى الوزير الاستاذ (حسن عبد الله آل الشيخ) فاذا عَنَّ لهم الاحتفاظ بالأصل فاني أرجو ـ وبالحاح ـ أن لا ينسخوه بخطوطهم أو بالآلة الكاتبة ، وانما بخطه شخصيا ، أو بخط ابنته وأنا

أعرف الخطّين ، واستطيع أن أقرّر صحة نسبة الأثر اليه ، وباعث هذا الرجاء ، هو استبعاد الانتحال ، أو شبهته ، فقد قرأت قصيدة نسبت اليه ، ونشرت في احدى صحفنا المحلية ، ولم أجدها في مستوى شعره وأسلوبه وخطر لي انها مما نسب اليه خطأ مقصودا أو غير مقصود ، مع ترجيح جانب حسن النية على كل حال . واني أرجو الاخ الاستاذ (عبدالحميد مشخص) ، الذى نشروا في الصحف أنه يعتزم نشر مجموعة من شعر الفقيد ، ان يتكرّم هو أيضا ، فيدفع بما لديه الى معالي الوزير ، وأملي معقود على أصحاب الحق من ورثته أن لا يمانعوا في أن يقوم المجلس الأعلى للعلوم والفنون والآداب ، بنشر مايجمع من الشعر والنثر والمحاضرة أيضا .

أما ما بقي ، ورجّحت انه قد ضنّ به على الحرق والتمزيق في السنين الأخيرة من أيامه على هذه الأرض ، فلا يتسع المجال لدراسته وتحليله أو نقده كما لا يتسع لعرض الكثير منه ، ولذلك فانا اختار

له ـ أو فلأقل انى ألتقط ـ مقطوعة قصيرة نوعا ، ومقطوعة أخرى ، كان قد نظمها فى جدة عندما عاد اليها منذ سنوات وقد وافق على ان تسجّل وتذاع ، وحضر معى تسجيلها ، يقول فى هذه المقطوعة :

ياشعاعا يلوح فى ظلمة اليأس ويخفى .. ماذا يطيق البصيصُ؟
لست الا وهما يراود عينيّ ويَعْيا بكشفه التشخيص
أو شراعا اَعْيته ثائرة الموج ، فصدر يطفو ، وعجز يغوص
يا لنا ، طائريْن ريعا عن الوكر فهاما ، والليل داجٍ عويص
فهمآ فى الظلام داعٍ مهيض ، لسليم جناحه مقصوص

* * *

ما أرى فى البقاء الا عُلالاتِ خيال مالها التنغيص
والردى صائد النفوس فمافرّ كناس منه ولم ينج عيص
فعلام العناء ، يُضْنِى المجدّين ويصلاه طاعم وخميص
يا لها رحلة برانا بها الجهد ، ولكن قد عزّ فيها النكوص

* * *

يامجال الأفكار، ضقت بها خطوا وئيدا، فكيف.. كيف النكوص ؟
اى دنيا تلك التى غَلَبَتْ فيها على الحق سفلة ولصوص

قال قـــوم : زمانـنـــا دون ازمانٍ تقضّت ، وأعوز التمحيص
انما الناس منذ كانوا : ضعيف لقـــوي ، وقانص وقنيص

★ ★ ★

يا فسيلا قد غَصَّ بالمـــاء ريًّا ذاك نخل نصيبـــه منقوص
قد شغفنا بالأعين النجل حباً وسبت غيرَنا العيـونُ الخـــوص
قال لى صـــاحبى : سيصلح شان الناس يوما فهالنى التخريص

★ ★ ★

قصرت من ثيابها ، فعنا المفتون صمتا ، وأمسك الترخيص
جنّبينا ، يا تلك ••• دعوة اعضائك فى ما يشفّ عنه القميص
حســبنا فتنة الانوثة ، شَنَّتْهاعلينا شــباكها والشـصوص
شهد العقل ، أن عيش الخليين على ما فقهتُ ، عيش رخيص

★ ★ ★

سألت : ما هو القضاء ؟؟ فاطرقت طويلا • أما هدتها النصوص؟
وارانى ، لو قلت شيئا ، لأزرى فيه الاسهـــاب والتلخيص
نحن بالله ساكنين ، وماضين فمـــاذا أرواحنا والشخوص ؟
أترى ما يصيبه المرء فى دنياه أمرا ، قد كان عنه محيص
ما أصاب القضاء منا غفولا ـ قبل حين ـ ولا اتّقاه حريص

★ ★ ★

أيها المرتجى مكوثا على الارض تَهَيَّأْ فقد دعاك الشـــخوص

شوارد من حكمه ..

أما أقــواله ، التى قلت انها تدخــل فيما يسمى (افوريزم) أو الأقوال المأثورة ، فانى ألتقط منها القليل الذى يعطى فكرة عن مســتواها وعمقهــا وما أقرأه فى بعضها يجعلنى أرجح انه قاله ، فى أيام صباه أو فجر شبابه ٠

يقول رحمه الله :

● ان من لايندفع الى الامام ، يدفعه تيار الحياة الى الوراء ٠

● الفاقة تقتل أشرف الدواعى فى النفس ٠

● الهوان يصبح سهلا بالممارسة ، ككل شىء آخر

٠٠ وما أصدق المتنبى فى قوله :

من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميت ايلام

● الجمـــال منجـم غني بالاعاجيب والذخائر النفسية ولكن الرغبات لا تصطرع حـــوله ، كما تصطرع على منجم فحم ٠

● الحب لمن يدمنه كالخمر عند من يدمن عليها ٠٠ كلاهما يشترى هذه النشوة والخدر اللذيذ بصحته وماله ٠

● ما نفع الحرية لمن ليست له رغائب ٠

● عندما تتلامح عينان متفاهمتان يكون هنالك لحن موسيقى مشترك ٠

● أليست حياة المتسول خيرا من أن يكون الانسان موضوع رحمة الآخرين ٠؟؟؟

● لا حد لبواعث الالم عند من يحس ويدرك ٠

● لايجمل أن تتجرد الحياة من قانون الرحمة ٠٠ ولكن يجب أن تتجرد ممن يُطبّق عليهم هذا القانون

● انى أتقبّل الكذبة أحيانا ، لا لانى لا أعرف زورها ، ولكن لأتفادى هول الحقيقة المستترة فيها ٠

فاذا قال لى حبيب : أنت وحدك ملء قلبى وشغله ، وكنت حينذاك المحروم مما يناله مزاحمي السعيد • لا أقول له : انت كاذب •• لأن هذا يحرمنى حتى من الكلمة الطيبة أو من العزاء •

● ان المستحيل يتحقق أحيانا •• فلماذا نيأس ؟؟

● علمتنى الحوادث ، أن غير المعقول يقع كثيرا

● ليس فى الدنيـــا تجارة يكثر فيها التغـابن كالزواج •

● المَطالِب التى تتحقق كاملة تكاد تندر فى حياة الأمم والأفراد ، وهذا علة ان الصراع فى الحيـــاة لا ينتهى •

● أى انسان لا ينقلب اباحيا شريرا عندما تتحطم كل مجهوداِته الشريفة فى ســبيل النجاح ••• ان الصبر على مثل هذا الصراع القاتل لا تطيقـــه الا قوى الأنبياء فقط ••• وحتى الأنبياء ـ ألم يكن متوقعـا أن يملّوا الـكفاح لولم يكونوا واثقين من

النتائج ؟؟؟ كيف أبقى فاضلا اذا استحال أن أنتفع فى حياتى بأى محاولة شريفة ؟

● أى رجل لا ينقلب طفلا ـ على الاقل فى باطن نفسه ـ عندما يعشق ؟

● أليس ادعاء الشرف عزاء من أخطاء النجاح .. ولكن ما هو النجاح ؟؟

● فى شبابى عشت شيخا .. وفى شيخوختى تشبثت بعيش الشباب ، فأضعت شطري عمرى هباء

● كلما قلّ نصيبك من الاحساس ، وجدت الحياة ممتعة .

● المعركة الابدية بين الرجل والمرأة غير متكافئة ، ينتصر فيها الرجل باستمرار .. ولكنه الضحية دائما .

● اليأس ، ليس فقدان الرغبة فى النضال .. لكنه فقدان الايمان بجدواهُ .

● ما الابداع اذا كانت الصور التى يعطيها الفنان

هى ذات الصور التى تقدمها الحياة ؟

● الآن فهمت .. ان الانسحاب من المعارك حكمة أكثر منه جبنا .

● لم يبق فى المرأة ما يثير الفضول ، ومتعة الاكتشاف ، ولذة التعقيب ... بعد سفورها .

● الذين جمّلوا المرأة بالوسائل الصناعية ، لم يُفقدوها سحر الأنوثة الطبيعى فقط ، بل جعلوا منها صدمة لعواطف الرجل وخياله .

● أعقد عملية خداع فى العالم ، تلك التى يقوم بها دور الخطوبة بين رجل وامرأة .. لأن المخدوع فيها يعتقد أنه الخادع .

● مضاضة الحرمان من المرأة ، أخف وطأة من مضاضة الارتباط بها ، حيث يتعذر الخلاص منها بلا كارثة .

● لا حد لصور الشقاء البشري ، ولكن فقدان الحرية هو أفظع هذه الصور .

● اننا أمام جيل جـــديد من النساء ، يفهم أن الرجل منتج للثروة والمرأة مستهلك لها •

● ليس هناك فرق بين أن تكون الغالب أو المغلوب اذا ناضلتك امرأة •• فأنت الخاسر وحـــدك فى الحالتين •

● اللذة ، كالالم كلاهما وليد الانفعال والتوتر ، لذلك كان كل مالا يثير انفعالا وتوترا مولِّداً للسأم ، حتى الجمال •

● لا ينسى الطائر السجين ، الطيران ، مهما طال سجنه ولكن الانســان ينسى الحرية تمــاما بطــول الاستعباد •• هذا أغرب فارق بينهما •

★ ★ ★

كلمة الختام ..

والآن ... وقد فرغت من تقديم هذه اللمحة عن الشخصية الأدبية عندنا ، التى زعمت انها القمة التى عرفت ولم تكتشف ، أعلم أن بين من يقرأون هذا الحديث ، من يطالبنى بأن أضع أنامله ، أو أفتح عينيه ، على ما يثبت انه (قمة) ويدفع عنى تهمة اسرافى فى الثناء عليها ، مذهب من تجرفه العاطفة وقد فقد ما يخفّف من قوة تدفقها ضوابط المنطق والعقل ، بل ضوابطا لعلم بمكامن القوة ومناجم المعادن الثمينة ، التى تدعم بالحجة ما زعمت .

وهذا مطلب أعترف بأنه عسير على من يكتب لمحة تستعرض القليل من أفكاره ، والومضة من فنّه ،والنغبة من علمه ، والشريحة الصغيرة المحدودة

من سيرته وخلفياته الثقافية ··· ولكنه لا يتعـذر ولا يتعسر على من يفرغ للأكثر والأوفى من هـذه الافكار ، ومن هذا الفن ، ومن هذا العلم بالتحليل والتتبع وفحص واختبار ما يبدو لكاتب اللمحـة ـ وهو فى عجلة من أمره ـ مبتكرا واصيلا ويتضح للمحلل والباحث أن له منابعه وانه يتفاعل فى نفس هذه الشـخصية من مصادر أؤكد أنهـا كانت أكبر وأعز نفسا من أن تتعمد النظر أو التلفيق أو التعمية أو الايهام والتمويه ، ولكنى لا استبعد أن يكون مما تمثلته تلك المعدة الفكرية التى قلت انها جبـارة الهضم والتمثيل ·

ومن يفرغ لعمل من هذا المستوى ، لا بد أن يجد الوقت الذى يكرّسه لموضوعه الواحد ، ولسوء حظى وحظ حمزة شـحاتة معى ، انى لست ممن يجـدون هذا الوقت الآن على الأقل ، ولا أتحدث عن المستقبل وما بقى من العمر والجهد لا يشـجّع على أن التزم بشىء ، أو أن أعد بما أصبحت أعدّه حلما من الأحلام

ليس بالنسبة لدراسة وتحليل ونقد آثار حمـــزة شحاتة فقط ، وانما بالنسبة لكثير ومتعدد ومتنوع من أعمال أدبية وفكرية تتجمع الرغبة فى التفرغ لهـا ، بل حتى فى التفــرغ لجمع وتبويب ونســخ ما يصلح منهـا للنشر ، ولــكن سرعان ما تطوقنى الالتزامات الأخرى ، فتنسف كل ما يتجمع ، لتتركنى مكرها على جرّ العربة المثقلة بالاعباء بينما نظرتى ترامق تلك الأحلام ٠

ومع ذلك ٠٠٠ أفليس لذيذا وممتعــــا أن نظلّ نعيش ما بقى من أيام العمر كما عشنا ما مضى منه حالمين بالكثير والخطير دون أن نحقق فى دنيا الواقع الا القليل والتافه والنزر اليسير ٠

بلى ٠٠٠ فى الشعور بهذه اللذة والمتعة عزاء كثيرا ما أعان على البلوى وأسعف بالصبر الجميل ٠٠

مقتطفات من المحاضرة

● المجازفة في تاريخ نشأة الحياة ، في تاريخ تطورها ، قادت روادها الى القمم الشامخة ، وأعانت على كشف مساتير الوجود والفكر .

● الركود في تاريخ أمة ، تتطلع الى ما وراء حدودها الجامدة ، شر من الخطأ .

● الاذواق متى ألفت أن تصيب لذتها من جمال محدود ، تاقت بعد الفته ، واستصفاء معانيه الى ما يكمن وراء حدوده الظاهرة .

● ادمان النظر الى الصورة الجميلة ، يفقدها شيئا من تأثيرها القوى ، كلما تجدد اليها النظر المشغوف وارتوى منها الحسّ المنهوم ، حتى تفقد مقدرتها على التأثير والاداء .

● الناس ان أدهشهم الرجل العادي لانه لعب على الحبل بمهارة ، لم يقنعوا من البهلوان الشهير الا بما يدخل في حدود السحر من الأفعال الخارقة •

● ان كان الانسان المتحضر اليوم لا يعيش كما كان يعيش سلفه ، فان قلبه لا يزال ذلك القلب ، وقريحته الشعرية ما تزال تلك القريحة ، وما تزال أسباب الحب ومشاكله أو ابتعاثاته وأوهامه فى نفس شاعر اليوم ، هى ذاتها فى شاعر الأمس •

● الشىء قد يكون صحيحا فى ذاته ، وصحته لا تستدعى صحة الفكرة عن الاعتراف بامكان تطبيقه أو استحالة هذا الامكان ••• ولا تستدعى الايمان به أو رفضه •

● حسبكم أن تقرأوا اليوم فى الحجاز أساليب من الشعر وأساليب من الكتابة ، لا يختلف بعضها ، عما تعرفون لخيرة الكتّاب والشعراء فى مصر ••• فمن الذى يعده هذا تقليدا أو سرقة ؟؟؟ انما هو أثر الاشتراك العام فى مؤثّرات فكرية متشابهة ، وأثر

انتشار الثقافة ، وتهيؤ أسباب العلم بمستحدثات العقل والفكر والصناعة والفنون ، وتوثق الصلات الفكرية والأدبية ، وتوحد اللغة والدين وتقارب الطباع والأمزجة ، وتأثير الاختلاط والامتزاج الاجتماعي والفكري ٠٠ وفى شعراء مصر من نجد على شعره سمات شاعر عربي قديم وطابع صياغته وفى كتّابها من نجد فى آثاره ما يعلن صلته الصريحة بأديب من كبار أدبائها ٠٠ وفى كبار أدبائها من تطالعنا آثاره بأفكار أديب أو نظرات أو مذاهب فيلسوف من الغرب ٠

● الخلق الفاضل ٠٠ يعرفه الناس ، فلا يزيدهم فهما له ، أن تقيم الكلمات والتعاريف حدوده ، فهم يكذبون ويخونون ٠٠ ويؤمنون بأن الصدق والأمانة نبل ٠

وهم يتبذّلون ويشعرون أن العفة سمو ٠

ويظلمون ٠٠٠ ويقدسون العدالة ٠

فالفضائل اذن صفات وأعمال تؤمن الجماعة

الغالبة ـ اصطلاحا ـ بفائدتها وضرورتها أو بأنها خـــير •

والرزائل صفات وأعمال تؤمن الجماعة الغالبة ـ اصطلاحا ـ بضررها ، أو بأنها شر •

فالنفع والأذى أســاس الاعتبــار فى الفضــائل والرزائل •

● الرجولة ، فى ميزان الاعتبار الادبي ، ليست هى الفارق الطبيعي بين جنسين ، ولكنها مجموعة من الصفات الرائعة فى خلق الرجل الرائع •

● لو أردت أن أضع تعاريف أدقّ وأكمل للفضيلة والرزيلة ، والرجولة والأخلاق ، لوجب أن أســوق أمامى قطيعا من أفكار الحكماء والعلمــاء والأدباء والفلاسفة •• وأكون قد عرضت عليكم بضــاعة غيرى ••

● اذا انهزمت الرذيلة فى مجال الحياة الظاهر ••

لم تنهزم فى مجالها الباطن ، فعرشها مايزال موطد الأركان فى النفوس ·

● الايمان الكامل الصحيح بالفضيلة معرفة ·· وعمل تقتضيه هذه المعرفة ثم ارادة ·· وحرية ·

● الايمان بالفضيلة دون العمل بمستلزماته ضعف لا يتناول حقيقة الايمان بل يتناول قوة النفس وضعفها ، وفتورها ونشاطها ، فهو ايمان المعرفة لا ايمان اليقظة ·

● لون آخر من الايمان بالفضيلة تولده الضرورة لا يكون لاختيار الارادة فيه مجال ولا لحريتها مساغ ، كايمان المرء بضرورة الثبات مع الاستبسال دون نفسه أمام خطر داهم ، لا مناص له من مواجهته فالثبات هنا ليس ايمانا بالثبات ، والعمل بمستلزماته ليس عملا بمستلزمات ايمان يقوم على اقتناع الحرية المختارة لكنه ايمان ضرورة بهذه المستلزمات والاستجابة لها · فهذا ايمان ، وعمل بمستلزماته وارادة ظاهرة ·

لا ينقصه الا الاختيار ليكون ايمانا كاملا .. ففيم يختلف عن ايمان رجل تحمله بالسيف على أن يؤمن بأن الصــدق خير من الكذب .. على أن يــكون صــادقا ؟؟؟ فاذا عرف وصــدق ، فانمــا يكون هذا ايمان ضرورة ، وعمــلا آليا لا اختيــار له فيه ولا حرية ، وانما يكون ايمانا تنقبض عليه نفســه كلما مارسه .

● الانسان كما يشاء أن يفهمه النــاس .. غير الانسان كما هو فى نفسه .

● لرب رجل يأتى الامر تظنــه خيرا كله ، وهو سبيله الى الشر والاذى وانتهاك الحرمات ومطيّته الى أغراض خائنة تسبح فى دم الضــحايا .. يرى اعجابك واعجــاب النــاس بما ظنوه خيرا ، فيتهلل لأنه عرف مكانه من براعة الحيلة ونفاذ الدهاء .. فوارحمتاه للانسان من أخيه الانسان ...

● الوعظ يمسّ النفوس .. ولا يرجها . ويثير فيها الرغبة ، ولا يوقظ الارادة ، ولا أريد لحديثى

الليلة أن يكون موعظة تلفّ النفوس فيما يشبه الغيم الرقيق ، لا هو يجلوها ، ولا هو يتركها ، فى غياهبها المطبقة .

● فرص الحياة شائعة يأخذ كل فرد فى الجماعة بنصيبه منها .

هذا يطارد الغزال .. وهذا يكمن له .

هذا يصيد أكثر .. لأنه أكثر قوة وحيلة .

لا يصيد كثيرا الا الأقوى .

القوي يعيش .. والضعيف يموت .

هكذا آمن الانسان بالقوة ، وبمظاهر اقتدارها .
وهكذا آمن بالحظ .. والزعامة .. والبطولة .

● ألسنا فى القرن العشرين .. وفى دولة الفكر نرى أن القوة مصدر السلطان .. وان سلطانها **عطل قوة الروح .**

● الفقير ، يشعر شعورا متطرفا بشكوى فقير مثله أو دونه ٠

الغني لا يشعر كشعوره ، الا نحو غني من درجته أو أقل قليلا ٠

الفقير يعرف حرارة الجوع ٠

● الغني يعرف حرارة الاضطرار لبيع منزل ٠٠ المسكين عنده من اضطر الى بيعه ٠٠ فهو فى دنيا غير دنيا الفقر ٠

● النعمة لاتبطر ٠٠ ولكنها قوة تجعل الانسان انفراديا ٠٠ فهى تسدّ مسام الشعور والاحساس وتغلق نوافذ النفس ٠

ليس الاغنياء كلهم هكذا ٠٠ ولا الفقراء كلهم هكذا

هناك غني يشعر وتستجيب دواعى نفسه ، ولكن فى الالف

وهناك فقير لايشعر ولا يستجيب ٠٠ ولكن فى الالف

● ليس فى تغلّب قـــوة على قوة تغالبها ، فى ميادين التطاحن ، شر ولا رذيلة ٠٠ كلتاهما تعمل للبقاء والسيادة وكلتاهما تدافع عن حق تراه حقا فالنزاع بينهمـــا مشروع كمـــا كان النزاع ، بين الانسان والحيوان مشروعا ٠

● ماتزال الجماعة أقل دقة ، وأسرع ايمـــانا وأعمق استجابة من الفرد

● تضيق حرية الفرد كلما تقدمت أطوار الجماعة اجتماعيا ، وكلما تكاثرت الروابط الاجتمـــاعية ، واتسعت الحدود لحرية الجماعة فيها ٠

● التمثيل قديم فى حياة الانسان ٠٠ الارجح انه عرفه بعد أن عرف النار وتجمع حولها للدفء واللعب ٠ رجل لذعته النار فقفز ، وتوثّب على رجل واحدة ، وامسك موضع اللذعة بيده ٠٠ هذه

مفاجأة يضحك لها الناس ، لان فيها شيئا غير الجد المحض •

اذا قلّده أحدهم ضحكوا أكثر ••

هذا تمثيل •• ثم هو رقص •••

هكذا اتسعت الحياة رويدا

والناس يمثّلون •• ويقلدون بعضهم ، في الجد والهزل ، لتحبهم الجماعة

● المزاولة والتقليد أقدر على ترسيخ السجايا وتحويلها الى مشاعر وأخلاق ثابتة من أحكام الضرورات •

● الحمار ـ وعلاقتي الادبية به قديمة جدا ـ وعفوا ـ تضيق دائرة اتصاله بالانسان ، ولايتخطّى حدودها الضيقة ، لذلك كان تطوره التخلقي أقل مرتبة من تطور الكلب •

لبرنارد شو ، الكاتب والفيلسوف الانجليزي ـ حمارة ، ما أشك في أن لها نصيبا وافرا من الادراك

تخطّت به حدود بنات جنسها وأبنائه كثيرا ، ان اضطرد القياس ٠٠ وماله لايضطرد ٠

● الثــروة ٠٠٠ أقدر على تحقيق المطــالب والرغبات و بسط النفوذ من قوة الجسد وقوة الفكر

● الفضائل أنانية مهذبة ٠٠ والرذائل أنانية عارية

●اذا عطفت أنا على مريض ملقًى فى الطريق وواســيته ، لا أنال التقدير ينــاله رجل بارز فى المجتمع يفعل فعلى ٠٠٠

● بعض المعائب والرذائل ، يوسّع لها العرف العام صدره ، متى كان المتصف بها قويا وذا نفوذ

● رقة الجانب ، والبشاشة ، والدعة ، وصدق الشعور ، والاريحية ، ونبل الاتجاه ، والايثار ، فى رجل فقير لاتســـاوى كلها فى ميــزان الفهم والاعجاب ، ابتسامة فاترة أو ايمــاءة مكرهة من

رجل ذى نفوذ ولتكن بعد ذلك بارقة كاذبة لا أمل فيهــا ٠

● الناس مايزالون يترنمون بالصدق ويحضون عليه ولكنا لانجد له أثرا بينهم ، وقد أصبح الكذب وماولد من رذائل المكر ، والخداع ، والمداهنـــة ، والتصنع ، والمداورة ، والرياء ، قانون الحيـــاة الاجتماعية ٠

● اذا قال قائل : ان حظ الفضائل آخذ فى الادبار ، لم يقل الا بعض الحقيقة ٠٠ الحقيقة كلها ان حظ الفضائل قد أدبر وزال ٠

● وارحمتاه للضعفاء ٠٠ لماذا لايتعلمون فن القوة اذن ليكونوا أقوياء ؟!

● ما من فضيلة تمارس الا وفى أطوارها دلالة على قهر النفس ، وكبح غرائزها وجهاد لمطالب هواها فلا جرم ان يكون اعجابنا بهـا اعجابا يؤدى معنى الاعتراف بقيمة شىء نجد صعوبة فى اكتسـابه أو

نحسّ هذه الصعوبة فى اكتسابه ·· وما تغلو قيم الاشياء ــ عادة ــ الا بمقدار الصعوبة فى الحصول عليها ، والا بمقدار الحاجة اليها

● الايمان بالقوة ونفوذها ، هو حقيقة الحياة ، وهو قانونها فى القرن العشرين ، وفى القـــرون الاولى ، وفى أطوار الحياة القديمة البعيدة ·

● الدعوة الى الفضائل حلم جميل بالحياة كما يجب أن تكون ، لا كما هى كائنة ·· حلم ماتحققه الا القوة ·

● الكرم لم يكن فى أول نشأته تضحية وايثارا وغراما بالبــذل ، انمــا كان ــ ولايزال ــ دلالة افتخارية على اتساع نفوذ القوي ومقدرته على مواصلة الجد والانتاج ·· على أنه لايتناول الا الزيادة ·· وســـبيل تعويضها ممهودة هينة بعد اتساع رقعة التجربة والسعي ، وامتــداد مذاهب الحيلة ، وحنكة المزاولة واتساع الثراء · ثم هو بعد ، صفة لازمة لمن تحلهم قوتهم من الجماعة محل

الابطال والقواد .. فالكريم أكثر أعوانا وأبعد صوتا ، وأعمق أثرا فى النفوس وأرفع منزلة فى العيون .. ولايزال فى الناس من ينزلهم كرمهم منزلة الزعماء المسيطرين . والكرم فضيلة متعدية .. لذلك كان الثناء والاقبال على تمجيدها أكثر من الثناء والاقبال على تمجيد العفة .. مع أن العفة قهر صارم ، ورمز للقوة أكثر مما يكون الكرم الذى هو فى معناه وطبيعةدوافعه ، انتفاءللخوف منالفاقة، أو توكيد للمقدرة ، أو استغراق فى لذة نفسية ، أو سعي وراء مطلب أدبي يكون أغلى من المادة المبذولة فى نفس الباذل .

● ان كان الكرم شعرا وحماسا وخيالا جميلا ، فان البخل حكمة وفلسفة وفهم عميق .

● الكرم يعطى ليأخذ ، والبخل اكتفاء .. وماعاب الناس البخل الا لما فيه من أثر الانانية الواضحة ، واعتكاف فى حدود الذات ... ونحن

نراه أنانية محدودة قانعة •• ونرى الكرم أنانية واسعة جشعة •• همّها استرقاق النفوس والالسنة وذيوع الفخار وتحقيق المطامع ، والاستمتاع باللذة الخفية •

● القناعة •• كانت فضيلة ـ ولاتزال فضيلة الصابر المحروم ـ لانها رمز الاكتفاء القوي عن الناس ، والتحكم فى مطالب النفس ، وحد طماحها ، ترفعا عن التدلى لالتماسها منهم • ولكنها اليوم فضيلة خاملة ، توشك آن تنقلب رذيلة فى عرف الحياة الراهنة ومصطلحات طورها الحديث فهى معدودة فى الفقير تسليما بالعجز عن ادراك الرغائب وفى الغني دلالة الاستكفاء •

ولو قلنا : انها فى الغني والفقير دليل سمو النفس وترفّعها لم نقل حقًا •

ولايسعنا أن ننكر ان قناعة الفقير والضعيف والعاجز ، عزاء يلتمس لتخفيف وطأة الشعور

بالحرمان عن النفس • وهذا المتنبي يقول :

كل عفو أتى بغير اقتدار حجة لاجىء اليها اللئام

فالعفو عنده ، لايكون الا من قادر •• وهذا مطابق للاصطلاح •• فلماذا لاتكون القناعة فضيلة ـ ان كانت ـ الا ممن تتوفر فيه المقدرة على تحقيق الاطماع •

● من الذى يرى أن عفة الشيخ فى طور كلاله واسترخائه فضيلة ؟؟؟ انما هى فضيلة السن وقانون الفتور • وليست فضيلة القوة والصبر والمغالبة ، كما هى فى الرجل القادر على تأمين مطالبه •

● الكذب فى المدينة العامرة ضرورة اجتماعية واقتصادية ، تعين على الرواج ، وانتعاش حركة التبادل والاقناع •

فلو ساد الصدق فيها أصيبت مجالات الحركة والنشاط بركدة يتضاعف معها الشعور بأعباء الحياة وهمومها •

● الكذب دليل فقدان الثقة بنفع الصدق ·· وهو أكثر الرذائل نسلا ، وأرشـقها دخولا على النفوس وأوسعها حذقا ·

● الرياء ، والتصنعوالغيبة ، والخداع، والمكر والمداهنة والمداورة ، والمصانعة ، والنفاق ، والغدر والدهاء من مواليد الكذب ومركباته ·

وقد ضـمنت له هـذه الكثرة ـ فى المواليد ـ الشيوع والسيطرة ·· وضيقت مجـال الصـدق حتى اعتبر خشونة وجهامة ، وقلة بصر بالحياة ·· وسذاجة ·

● بعض الرذائل ألصق بالحياة ، وأقرب الى طبائع النفوس من الفضـائل ، ويؤلمنا أن تكون المماراة فى هذا ضربا من العبث ·

● لنا رأى ·· نخالف به الاصطلاح الشائع فى الفضائل والرذائل خلاصته : انا لانرى صفة من هذه الصفات التى جرينا فى هـذا الحديث على

تسميتها : فضائل ورذائل ، ماهو خليق بهـــذه التسمية •

وانما ندعوها محاسن ومعائب فردية يهبط بها العرف أو يعلو ، على وفاق نصيب المتصف بها من القوة والضعف أو على نصيبها من الشيوع والخمول وأساسها الانانية والمصلحة •

أما الفضائل التي نراها خليقة بهذه التســمية فهي التي نزل بها القرآن ودعا اليها •• تلك فضائل لايكون للمتصف بها ، والمؤمن بقوانينها ، نظر الى مصلحة أو سمعة ، وان كان شيء من ذلك ، فالمثوبة عند الله ، والزلفى اليه •

فالكرم فيها احسان الى مستحقه •• ينزل منزلة الحق المفروض له وخروج من سلطان المادة وحدودها في سبيل الله •

والامانة مبدأ يعامل الامين به النـــاس ، كأنه يعامل الله ••

والصدق ميزان دقيق ... لا يستقر فيه الغش والتدليس ، ولا يستقر فيه الحقد والرياء .

والتواضع انكار للذات وقوتها فى سبيل ايمانها بقوة الله .

والعفة سمو بالنفس لا تشيل بميزانه خالجة من خوالج الشيطان والهوى ، فاذا انحرفت بها نزوة عارضـــة من نزواتها لجأت الى التكفير والتوبة ، والاعتراف لتتطهر من اثمها .

وهكذا حتى تكون الفضيلة حياء من الله تتجنب مواطن حرماته ، فلا تأتيها ولو أتاها الناس جميعا .

● فضائل الدين التى بعث محمد صلى الله عليه وسلم ، ليتمم بها مكارم الاخلاق ـ تضحية لا ينتظر من ورائها الى غرور الدنيا ، واعراضـها الزائلة .. تضحية لا تضمن للمقدم عليها متعة ولا فائدة الا الزلفى الى الله .. ونعمت تجارة لن تبور .

تلك محاسن ... وهذه التي جاء بها القرآن فضائل

تلك فضائل يصاد بها حطام الدنيا ، أو تسحر أعين الناس

وهذه وسائل ينال بها رضاء الله ، وتبتغى المثوبة عنده

تلك محاسن نزل بنا ايماننا بها الى الحضيض ، فكانت شارة ضعفنا .. وهذه فضائل أقامت مبدأ ساميا فتح القلوب والنفوس ، قبل أن يفتتح المدن والممالك .. فما يعجزها والله أن تنهض بهذه الامة التي قعد بها ضعفها ، وقعدت بهما محاسن وعائب بنيها .

فلنلتمسها .. ولنمهد المجال لظهورها .. فهي أمل النجاة ، وسبب النهوض وسبيل القوة والظفر .

● ان كل فضيلة من فضائل القرآن تضرب المثل

الاعلى الكامل للقوة وحريتها فآمنوا بها واطلبوها .

وكل فضيلة من فضائلنا تضرب مثلا للضعف والتهافت والتمويه فاعرضوا عنها وانبذوها .

وليكن الكريم الوهاب محسنا انوفا ، يأبى أن يأخذ بما يعطى شيئا .

وليكن محسنا بصيرا ، يفرق بين الحسنة الواجبة ، والمحمدة الزائفة .

وليكن الشجاع مجاهدا حرا ... يغضب للحق كما يغضب لنفسه .

وليكن المتواضع صادقا .. لا طامعا .

والصابر مختارا لا مكرها .

والايثاري زاهدا لا تاجرا .

● ● ●

الفهرس

مطابع اليمامة ـ الرياض ـ تلفون ٦٦٢٢٣